

# الحب الكبير

فيكتور هوجو



## المؤلف

ولد فيكتور هوجو بمدينة بيزانسون بفرنسا عام ١٨٠٢ ، وكان والده ضابطا بالجيش الفرنسي ، ونقل بعد شهرين من مولد ابنه الى جزيرة كورسيكا ومنها الى جزيرة البا ، ثم انتقل بعد ذلك في سنة ١٨٠٥ الى باريس حيث قضت الاسرة بها ثلاث سنوات وانتقل منها الى نابولي فمدريد . وكان من نتيجة ذلك ان امتلأت مخيلة الصبي الصغير برؤى عديدة وذنويات مختلفة كان لها اكبر الأثر في حياته .

وكان قد بلغ الرابعة عشرة من عمره عندما اشترك في مسابقة شعرية اقامتها الاكاديمية الفرنسية وارسل قصيدة تتألف من ثلاثمائة بيت من الشعر ظفرت باعجاب أعضاء الاكاديمية واكتفت لجنة المسابقة بتسجيل اسمه بين الشعراء وهم في شك من أمر الشاعر الفتى .

وتتابعت قصائده بعد ذلك واصدر مع اخيه الاكبر صحيفة ادبية باسم « المحافظ الأدبي » ونشر فيها العديد من قصصه اثارت اعجاب الجميع بما فيهم الشاعر الرومانسي الكبير شاتوبريان بحيث لقبه بالصبي النابغة .

واصدر اول ديوان له باسم اغاني وقصائد مختلفة في سنة ١٨٢٢ .

وتزوج في العام التالي بابنة الجيران « اديل فوشيه » ثم اصدر مجلة ( لاموز الفرنسية ) كانت فتحة جديدا في ادب الشعر غيرت معالم الادب الكلاسيكي ولقيت معارضة كبيرة من انصار هذا الادب .

وفي عام ١٨٢٧ نشر اول مسرحية له باسم كرومويل ضمنها مقدمة طويلة سجل فيها بحثا دقيقا وشاملا في طريقته لمعالجة المسرحية

**Looloo**

Y

www.dvd4arab.com

الرومانسيه ثم اصدر ديوانه المعروف باسم « الشرقيات » وبعدها قصة « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » .

وكتب للمرح مارجيـة ماريون دى لورم وانجزها فى ثلاثة اسابيع ولكن الرقابة اعترضت على تمثيلها لانها تتعرض لحياة الملك لويس الثالث عشر ، احد اجداد الملك شارل العاشر الذى كان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت ، على انها لم تلبث ان ظهرت على المسرح بعد الانقلاب وفرار شارل العاشر سنة ١٨٣٠ ، ثم ظهرت مسرحية « هرناني » فاكسبت شهرة كبيرة وتهافتت الجماهير على رؤيتها تهافتا لم يسبق له مثيل . ثم جاءت بعد ذلك رواية « احذب نوتردام » وبعدها مسرحية « الملك يلهو » ومنع عرضها هى الاخرى وظهرت له دواوين شعر عديدة نذكر منها الشرقيات سنة ١٨٢٩ واوراق الخريف سنة ١٨٣١ والاصوات الداخلية سنة ١٨٣٧ والاشعة والظلال سنة ١٨٤٠ والعقوبات سنة ١٨٥٢ والتأملات سنة ١٨٥٦ واسطورة القرون سنة ١٨٥٩ .

ولعب هوجو دورا سياسيا خطيرا فكان مؤيدا لابن نابليون ثم ناصر لويس فيليب وقاوم بعد ذلك سياسة نابليون الثالث ، ونتيجة لذلك صدر قرار بنفيه وظل فى منفى حتى سنة ١٨٧٠ ، واصدر اثناء ذلك روايته المشهورة « البؤساء » وشكسبير وسير الدهور . وعاد الى فرنسا بعد هزيمة نابليون الثالث وعلان الجمهورية الثالثة .

وانتخب رئيسا للأكاديمية الفرنسية وعضوا فى المجلس النيابى ، واصبح الشاعر الرسمى للدولة ، وظهرت له رواية جديدة بعنوان ٩٣ عن الثورة الفرنسية . وعاش آخر ايامه مبعجلا ومحترما وتوفى بباريس سنة ١٨٨٥ ، وشيعت جنازته باحتفال مهيب ، ودفن فى « البانتيون » حيث يرقد عظماء فرنسا .

- وعندما جاء دور النقيب ليوبولد دوفرنى اتسعت عيناه وهو يحدق فى الحاضرين وقال انه فى الواقع لا يعرف فى حياته حدثا يستحق الاهتمام ، ولكن الملازم هنرى انبرى عندئذ وقال له :

- ومع ذلك ، فانك قلت لنا يا سيدى النقيب انك سافرت كثيرا ورايت الدنيا . ألم تذهب الى جزر الانتيل والى افريقيا واطاليا واسبانيا ؟ آه ... ولكن ها هو كلبك الأعرج ايها النقيب !

اجفل دوفرنى ، وأفلت السيجار من يده وتحول الى مدخل الخيمة فجأة . كان هناك كلب ضخم يسرع اليه وهو يعرج .

وهرس الكلب سيجار النقيب ، ولم يحفل هذا الأخير بذلك ، اما الكلب فراح يتمسح فيه بذيله ويثب حوله بقدر استطاعته ثم مضى أخيرا فرقد أمامه . وتأثر النقيب وراح يلاطفه بيده اليسرى فى حركة آلية وقد ضاق صدره ، وبزبح بيده الأخرى رباط خوذته مكررا :

- اهذا أنت يا راسك ؟ ... اهذا انت ؟

وصاح يقول أخيرا : ولكن من الذى جاء بك ؟

- اذا سمحت لى ايها النقيب ..

وكان الرقيب ثاديه قد ازاح ستار الخيمة منذ لحظات ووقف والدموع تملا عينيه وذراعه اليمنى ملفوفة فى سترته ، وتمتم يقول أخيرا : اذا سمحت لى ايها النقيب ..

رفع دوفرنى عينيه اليه وقال : اهذا انت يا ثاديه ؟ .. ولكن كيف استطعت بحق الشيطان ؟ .. يا للكلب المسكين ! .. كنت احسبه فى معسكر الانجليز ... اين عثرت عليه ؟

- اننى لم اعثر عليه يا سيدى النقيب ، وانما مضيت وبحثت عنه .

نهض النقيب وبسط يده للرقيب ، ولكن يد هذا الاخير بقيت ملفوفة فى سترته . ولم يهتم النقيب بذلك ، وعاد ثاديه يقول :

— ذلك اننى رايتك يا سيدى النقيب تفتقد راسك منذ ان فقدناه . والحق اننى اعترف لك انه منذ ذلك اليوم الذى لم يأت فيه كعادته ليشاركنى جرايتى وانا امنع نفسى من البكاء كما لو كنت طفلا .. ولكننى احمد الله على ذلك فاننى لم ابك فى حياتى الا مرتين ، الاولى كانت فى ذلك اليوم الذى ...

ونظر الرقيب الى سيده فى ارتباك واستطرد يقول : والثانية عندما امرنى بلتازار ، ذلك العريف القريب الاطوار بالفرقة السابعة ان اقشر بصلا .

صاح هنرى وهو يضحك : ولكنك لم تقل لنا لماذا بكيت فى المرة الاولى يا ثاديه .

قال النقيب فى رفق وهو لا يكف عن مداعبة الكلب : لا ريب ان ذلك حين حصلت على لقب اول فارس فى فرنسا ايها العزيز .

— كلا ايها النقيب .. اذا كنت قد بكيت فقد كان ذلك ، كما تعرف ، فى اليوم الذى اصدرت فيه الامر باطلاق النار على بوج جارجال .

غطت ملامح النقيب سحابة واقترب من الرقيب على الفور وحاول ان يشد على يده ، ولكن على الرغم من الافراط فى مثل هذه الحفاوة فقد ابقى ثاديه يده ملفوفة فى سترته ، وارتد بضغ خطوات الى الوراء فى حين راح دوفرني يحدق فيه وفى عينيه تعبير يدل على الكدر . وعاد ثاديه يقول :

— نعم يا سيدى النقيب .. نعم .. اننى بكيت فى تلك المرة حقا ، وقد كان يستحق ذلك ... صحيح انه كان اسود اللون ولكن البارود اسود اللون هو الآخر و ... و ...

وكان الرقيب يود طبعاً ان يفرغ من تشبيهه القريب بطريقة مشرفة ، وربما كان هناك شيء فى هذا التشبيه يروق لخياله ، ولكنه

حاول عبثا التعبير عنه . وبعد أن أعيته المحاولة بكل المعاني انسحب فجأة ، كما يفعل القائد حين يفشل في حصار مكان منيع واستطرد يقول دون أن يحفل بابتسامات الضباط الشبان الذين يستمعون إليه :

— هل تذكر أيها النقيب ذلك الزنجى المسكين ، عندما جاء وهو مبهور الانفاس في نفس اللحظة التي كان فيها عشرة من زملائه هنا ؟ الحق أنه كان لابد من تكبيرهم ، فقد كنت أنا الذي أتولى القيادة ، وقد فك قيودهم هو نفسه لكي يحل محلهم بالرغم من رفضهم ذلك . ولكنه كان صليبا عنيدا .. أوه ، يا له من رجل ! .. كان صليبا حقا .. هل تذكر يا سيدي عندما وقف مكانه مستقيما كما لو كان بهم بالدخول في حلبة الرقص .. وكلبه .. رأسك الموجود هنا بالذات والذي فهم ما نوشك أن نفعل بسيدة فهجم على وأطبق على عنقي ...

قاطعته النقيب يقول : انت لا تأتي الى هذه النقطة من قصتك يا ثاديه الا وتلاطف رأسك بيدك .. انظر كيف ينظر اليك .

قال ثاديه في قلق : انت على حق .. ان هذا المسكين رأسك ينظر الى ... ولكن مالا جريدا العجوز قالت لي ان ملاطفة الكلب باليد اليسرى تنذر بالنحس .

صاح دوفرني في دهشة وقد لاحظ لأول مرة اليد الملقوفة في السترة والاصفرار الذي يكسو وجه ثاديه :

— ولماذا لا تلاطفه بيدك اليمنى ؟

اجاب الرقيب وقد ازداد ارتباكاه : اذا سمحت لي أيها النقيب ... ذلك انه ... ان لك كلبا اعرج واخشى ان ينتهي بك الامر الى ان يكون لك رقيب اكتع .

هب النقيب واقفا وهو يصيح : كيف ؟ .. ماذا تقول أيها العزيز ثاديه ؟ .. اكتع ؟ .. ارني ذراعك .. اكتع ! .. رحماك يا الله ! ..

**Looloo**

www.dvd4arab.com



وراح دو فرنى يرتجف ، فقد فك الرقيب سترته فى بطنه وكشف  
عن ذراعه الملقوف فى منديل مصبوغ بالدم . وتعمت يقول وهو يرفع  
المنديل فى حذر :

— ولكن يا الهى ! .. قل لى ما الذى حدث ايها العزيز .

— اوه ان الامر فى غاية البساطة . قلت لك اننى لاحظت اسلك  
وحزنك منذ ان اسر الانجليز الملاعين كلبك .. هذا المسكين راسك ! ..  
كلب بوج جارجال .. وكان فى هذا وحده ما يكفى ، فعزمت اليوم  
ان اعود به حتى لو كلفنى ذلك حياتى ، لكى اتناول عشاءى اليوم  
بشبهة مفتوحة .. وبعد ان لصحت ماتليه بان ينظف حلتك جيدا  
استعدادا لمعركة الغد ، تسلمت خلسة من المعسكر وانا لا احمل معى  
غير سيفى ، وسلكت طريقى خلال الادغال لكى اصل الى معسكر  
الانجليز باسرع وقت . ولم اكن قد بلغت اول الخنادق عندما رايت  
فى غابة صغيرة ، على اليسار ، جماعة من الجنود الانجليز ، فتقدمت  
فى حذر لكى استطلع امرهم . ولم يشعر بى احد منهم ، ورايت  
راسك فى وسطهم ، مربوطا الى شجرة ، فى حين راح رجلان عاريا  
الصدر كالوثنيين يتقاتلان من اجل كلبك . ولم يلبث راسك ان رآنى  
فشد الحبل الذى يربطه الى الشجرة بكل قواه بحيث انقطع ثم  
اسرع الى على الفور . وطار دنى الجميع . وتقلعت فى الفسحة  
وراسك يتبعنى ، وراحت تطلق الرصاص ترن عند اذنى وراح راسك  
ينبح ، ولكن لم يسمعه احد منهم لحسن الحظ ، فقد كانوا يصيحون  
« الكلب الفرنسى .. الكلب الفرنسى » . ولم احفل بهم واجتزت  
الوغل . وكنت على وشك الخروج منه عندما رايت رجلين من  
الاعداء امامى فجأة . وتخلصت من احدهما بسيفى وكان فى  
استطاعتى ان اتخلص من الآخر دون اى شك لو لم تنطلق رصاصة  
من مسدسه فجأة .. اترى ذراعى الايمن ؟ .. ولكن لا اهمية  
لهذا . وهجم الكلب على الرجل وانشب اظافره فى عنقه فهوى  
الانجليزى مختنقا . كان الكلب قاسيا جدا فى عناقه ، ولكن لماذا

لاحقنى ذلك الرجل ملاحقة الفقر للرجل المحتاج ؟ .. واخيرا عاد ثاديه الى المعسكر ومعه راسك . وعزائى الوحيد هو ان الله الرحيم لم يشأ ان اشترك فى معركة القذ .

واكتست ملامح الرقيب بسحابة من الكدر لا لشيء الا لأن اصابته ستمنعه من الاشتراك فى المعركة .

وصاح النقيب محققا : ثاديه ! ..

ولكنه لم يلبث ان اردف فى رفق : كيف بلغ بك الجنون الى حد ان تعرض حياتك للخطر من أجل كلب ؟ .

— لم اعرض حياتى للخطر من أجل كلب يا سيدى النقيب ... انما من أجل راسك .

لانت ملامح دوفرني تماما فى حين استطرد الرقيب :

— من أجل راسك ، كلب بوج جارجال .

صاح النقيب وهو يرفع الى جبينه : كفى ... كفى ايها العزيز ثاديه .

واردف يقول بعد صمت قصير : هلم بنا واعتمد على ذراعى ... تعال معى الى غرفة الاسعافات .

اطاعه ثاديه بعد مقاومة صغيرة احتراما منه . وكان الكلب قد راح يحك انفه فى جلد الدب السميك الذى يضعه النقيب عند قدميه ، ولكنه عندما رآهما يتعدان نهض وتبعهما بدوره .

## - ٢ -

اثارت هذه الواقعة اهتمام الضباط وفضولهم .

كان النقيب ليوبولد دوفرني رجلا كريما ، من هؤلاء الرجال الذين يوحى منظرهم بالاحترام المشوب بالاهتمام ، ومع ذلك فلم يكن فيه ما يثير الدهشة فى بادئ الامر ، فقد كان يبدو ببرد الطباع لا يابه لشيء ما . ومع ان شمس البلاد الحارة قد لوحت بشرته فانها لم



تكسبه تلك الحمية فى الحركات وفى الحديث التى تتألف عند المولدين البيض مع ذلك الفتور الرقيق . وكان يتحدث قليلا ويصفى نادرا ويبدو متأهبا دائما للعمل . كان الأول دائما فوق صهوة الجواد والاخير فى العودة الى الخيمة ، وكان يبدو انه يبحث فى المتاعب الجسدية عن تسلية وترفيه لافكاره ، تلك الافكار التى حفرت قسوتها الحزينة فى غضون جبينه التى منى بها قبل الأوان . . لم تكن من تلك الافكار التى يتخلص منها المرء ببثها والافصاح عنها ، ولا من تلك التى يتبادلها مع غيره فى حديث عابث . كان ليوبولد دوفرنى الذى لم تستطع المعارك والحروب ان تحطم جسده يشعر بتعب لا يوصف فى تبادل الحديث مع أى شخص . كان يتهرب من المناقشات ويبحث عن المعارك ، واذا انتقاد فى بعض الاحيان الى مجادلة كلامية فانه كان ينطق بثلاث او اربع كلمات زاخرة بالمعانى والحكمة ثم لا يلبث ان يتوقف فى اللحظة التى يوشك فيها ان يقنع محدثه ويتمتم « ما الجدوى ؟ » ويخرج لكى يسأل القائد عما يمكنهم ان يفعلوا فى انتظار ساعة الهجوم .

وكان زملاؤه يلتمسون له العذر لطباعه الجافة والمتحفظة ولعزوفه الى الصمت لانهم كانوا يجدونه فى كل الظروف شجاعا وكرهما ومتسامحا . كان قد اتقذ حياة الكثيرين منهم معرضا حياته هو للخطر ، وكانوا يعرفون انه اذا كان يفتح فمه فيما ندر فان حافضة تقوده لا تظل مغلقة ابدا على الاقل . كانوا يحبونه فى الجيش ، بل كانوا يفكرون له اجباره على تدلهم به .

ومع ذلك فقد كان لا يزال فى طور الشباب . كان يبدو فى الثلاثين من عمره مع انه كانت لا تزال امامه بضعة اعوام لكى يبلغ هذه السن .

وعلى الرغم من انه كان يقاتل فى صفوف الجمهوريين منذ بعض الوقت ، فقد كانوا يجهلون كل شيء عنه .

كان ناديه وراسك هما الوحيدان اللذان استطعا ان ينتزعا منه

Looloo

www.dvd4arab.com

بعض مشاعر الود . وكان الرقيب الشيخ الطيب ناديه قد التحق بالجيش معه ولم يكن يفارقه أبدا . وكان يحكى فى بعض الاوقات بضعة ظروف من حياته . كانوا يعرفون ان دوفرني قد عانى شقاء كبيرا فى أمريكا وانه تزوج فى سانتو دومينجو وانه فقد زوجته وكل اهله وسط المذابح . وفى ذلك الوقت اثارت مضائيه رثاء الجميع وشفقتهم ، ولكن كان رثائهم لمضائيه اقل بكثير من رثائهم لطريقته فى تأمله منها . والحق انهم كانوا يرون خللا بروده وعدم اهتمامه باختلاجات جرح داخلى لا يبرا .

فما ان تبدا معركة ما حتى يبدو الصفاء على جبينه ويبدى شجاعة فى الحرب كما لو كان يحاول ان يصبح جنرالاً ، ومتواضعا بعد المعركة كما لو كان لا يبقى الا ان يبقى جنديا عاديا .

واذ يرى زملاؤه ازدرائه للأمجاد والالقاب لا يفهمون لماذا يبدو كأنه يتمنى شيئا قبل المعركة ولا يخطر ببالهم أبدا أنه لا يبقى شيئا من اشتراكه فى المعارك غير الموت .

وقد عينه ممثلو الشعب المشرفون على الجيش ذات يوم رئيسا لأحد الألوية ولكنه رفض هذه الترقية لانه اذا افترق عن فرقته تعين عليه ان يفترق فى نفس الوقت عن الرقيب ناديه . وبعد بضعة ايام تطوع فى حملة عسكرية انتحارية وعاد منها على غير ما كان الجميع يتوقعون . وسمعوه عندئذ يتحسر على الرتبة التى رفضها قائلا : ما دامت مدافع العدو تآبى الا الإبقاء على فعل المقتلة التى تدق اعناق كل من يرتفعون ويرتقون ترضى بى .

- ٣ -

صاح الملازم هنرى وهو يسمح حذاءه الطويل الرقية الذى ترك عليه الكلب اثناء مروره بقعة كبيرة من الوحل :

- اراهن ان النقيب لا يرضى ان يستبدل قبائمه كلبه المكسورة

بصناديق النبل العشرة التى رايناها منذ ايام فى سيارة الجنرال .  
قال المرافق بسكال : انها لتكون صفقة خاسرة ، فان الزجاجات  
قد اصبحت فارغة الآن ، وانا على يقين من ذلك .

واردف يقول بلهجة الجد : ولعلكم تتفوقون معى على ان ثلاثين  
زجاجة فارغة لا تساوى حتما قائمة هذا الكلب المسكين . وهى  
قائمة يمكن على كل حال ان تستخدم قبضة لأحد الاجراس .  
اثارت لهجة الجد التى قيلت بها هذه الكلمات الاخيرة ضحكات  
الجميع ، فيما عدا الضابط الشاب الفريد ، فقد بدا عليه الاستيلاء  
وقال :

- لا ارى ما يدعوكم الى التندر فيما حدث ايها السادة . ان هذا  
الكلب وهذا الرقيب ، وقد رايتهما مع دوفرنى منذ ان عرفته ، يوحيان  
بشيء من الاهتمام . ثم ان هذا المشهد ...

قال باسكال وقد احنقه استياء هنرى وسخرية الآخرين : ان هذا  
المشهد عاطفى جدا .. وكيف لا يكون .. كلب مفقود عاد الى  
صاحبه ، وذراع مكسورة ! .

قال هنرى وهو يلقي خارج الخيمة بالزجاجة التى افرغها لتوه :  
انت مخطيء ايها الملازم باسكال ... ان هذا البوج يشير فضولى الى  
حد كبير .

عاد دوفرنى فى هذه اللحظة ومضى فجلس مكانه من غير ان ينطق  
بكلمة . كان مستغرقا فى تفكير هادىء ويبدو مشغولا بحيث انه  
لم يسمع شيئا مما يقال حوله . وكان راسك قد تبعه وقبع عند  
قدميه وهو ينظر اليه فى شيء من القلق :

- اليك كأسك ايها النقيب ... تذوق هذا النبل .

قال النقيب معتقدا انه يرد على سؤال باسكال : اوه ، الحمد لله .  
ان الجرح ليس خطيرا ، وذراعه لم تنكسر .

كان الاحترام غير الارادى الذى يبدية النقيب نحو جميع زملائه  
سببا فى ان هنرى تغلب على الضحكة التى اوشكت ان تنطلق من بين  
شفتيه وقال :

**Looloo**

www.dvd4arab.com

— ما دمت قد اطمأنتت على ثاديه ، وما دمتنا قد اتفقنا على أن  
يروى كل منا احدى مغامراته اختصارا لهذه الليلة التى كتب علينا  
قضاؤها فى الخيمة فانى ارجو ايها الصديق العزيز أن تفى بوعدك  
وأن تذكر لنا قصة كلبك الاعمرج وقصة بوج ... ذلك العملاق كما  
تدعوه ...

وما كان دوغرنى ليقبل أن يتكلم لو لم يضم الجميع أصواتهم  
الى صوت الملازم ، ولم يسعه اخيرا الا النزول عند رجائهم فقال :

— سوف اشبع فضولكم ايها السادة . ولكن لا تنتظروا منى اكثر  
من قصة صغيرة بسيطة لا اقوم فيها بأكثر من دور ثانوى . واذا كان  
الرباط الذى يربطنى بثاديه وراسك يجعلكم تنتظرون شيئا عجيبا  
فانى اقول لكم انكم مخطئون ، وهانذا ابدا .  
وساد عندئذ صمت عميق .

وبقى دوغرنى لحظة حالما كما لو لكى يستعيد الى ذهنه احداثا امحت  
منذ عهد بعيد ، واخيرا بدا يقول فى صوت خافت تتخلله وقفات  
متكررة .

#### — ٤ —

ولدت فى فرنسا ولكننى كنت لا ازال حدثا عندما غادرتها للاقامة  
فى سانتو دومينجو ، ونزلت عند احد اعمامى ، وهو مستوطن ثرى  
جدا كان ينبغى أن تزوج ابنته .

كانت املاك عمى مجاورة لحصن جاليفيه ، ومزارعه تشغل الجزء  
الاكبر من سهول الاكول .

وهذه النقطة تبدو لكم بغير ذات اهمية ، ولكنها كانت اول اسباب  
الدمار الذى حل بأسرتى كلها .

كان ثمانمائة من الزنوج يزرعون اراضى عمى الشاسعة ، وكانت  
الظروف التى يعيش فيها هؤلاء العبيد خريئة يزيد من حدتها

وقسوتها برود سيدهم ، فقد كان عمى من هؤلاء المزارعين الذين  
حجر الاستبداد والجبروت قلوبهم ، وهم قلة والحمد لله . وكان  
اقل تردد من قبل عبد من عبيده سببا فى ان يلقى اسوا عقاب ،  
وغالبا ما يكون توسط اولاده سببا فى تفاقم غضبه ، ولهذا كنا  
فى اغلب الاوقات نضطر الى الاكتفاء بتخفيف حدة الالام التى كنا  
لا نستطيع اتقاءها .

واحد فقط من هؤلاء العبيد لقي الحظوة عند عمى . كان قزما  
اسبانيا خلاسيا جاءه من جمايكا ، وكان عمى قد اقام مدة طويلة  
فى البرازيل واكتسب تقاليد البرتغال وعاداته القائمة على البدخ .  
وحرص على ان يحيط نفسه بجهاز يدل على مدى ثرائه ... عبيد  
كثيرون مدربون على الخدمة تمام التدريب كالخدم الاوربيين كانوا  
يصفون على بيته ومضة الاسياد . ولكى لا ينقصه شيء جعل من القزم  
مهرجه الخاص مقلدا فى ذلك الامراء الاقطاعيين القدامى الذين كان  
اسكل منهم مهرجه الخاص . ويجب القول ان اختيار عمى كان  
موفقا تماما فان القزم واسمه « هابيرا » كان واحدا من هؤلاء  
البشر الذين يجعلهم تكوينهم الطبيعى اقرب الى المسوخين والوحوش  
اذا لم يثيروا الضحك .

وكان عمى يحبه بسبب دمايته النادرة ومرحه الذى لا يتغير .  
كان كان هابيرا هو الاثير لديه فى حين كان يرهق العبيد الآخرين  
بالعمل طوال النهار . ولم يكن لهابيرا من عمل آخر الا ان يمشى  
خلف سيده وهو يحمل مروحة من ريش النعام يطرد بها الناموس  
عنه . وكان يتناول طعامه وهو جالس عند قدمى عمى فوق حصيرة  
من الاسل . وكان عمى يعطيه دائما ما يتبقى فى طبقه من طعامه  
الخاص المفضل ، ولم يكن هابيرا يستخدم مزايه كمهرج ويقول  
ما يعن له ان يقول وان يفعل ما يفعل الا للترفيه عن سيده ، وذلك  
بالآلاف الكلمات المضحكة والمصحوبة بالالتواءات والتقلصات .. وعند  
اقل حركة من عمى كان يسرع اليه بخفة القرد ويخضوع للكب . ولم

اكن احب هذا العبد ، وكنت احس بشيء من الرثاء نحو اولئك الزنوج  
النساء الذين كنت اراهم يكدون ويكدحون طوال النهار ، ولكن هذا  
المهرج المسوخ وهذا العبد الكسول بشيابه المضحكة المزركشة بالشرائط  
والزخرفة بالاجراس الصغيرة لم يكن يشير الا احتقارى . ومهما يكن  
فان هذا القزم لم يكن يستخدم حظوته عند سيده لمنع اذاه وغفلته  
عن اخوانه العبيد ، ولم يكن يتدخل ابدا حين كان سيده يفرض عقابه  
عليهم . بل ان بعضهم سمعوه ذات يوم ، وكان يظن انه بمقرده ،  
وهو يحث سيده لتشديد عقابه لهؤلاء المساكين . وكان يبدو ان  
العبيد لا يكونون له كراهية ما فقد كان يوحى لهم بنوع من الخوف  
المشوب بالاحترام والذي لا يمكن ان يشبه الحق ابا . وعندما  
كانوا يرونه يمر بين اكواخهم بطاقيته العريضة المدببة الحافة والمزينة  
بالاجراس الصغيرة والتي رسم عليها هو نفسه بالجبر الاحمر صورا  
غريبة كانوا يقولون بينهم وبين انفسهم وفي صوت خافت « انه  
ساحر » .

هذه النقاط التى الفت نظركم اليها الان لم تكن تشغلنى الا قليلا  
فى ذلك الوقت .

فقد كان كيانى كله ينبض وقتئذ بانفعالات حب طاهر يبدو ان  
ما من شيء يشوبه ... حب عظيم كانت تشاركنى فيه منذ الطفولة  
المرأة التى قدرت لى ، ولم اكن احفل بأى شيء آخر فيما عدا  
ما يتعلق بهارى . كان حبنا مزيجا من الاخلاص الاخوى والعشق  
الملتهب والثقة الزوجية .

قليل من الرجال قضوا سنواتهم الاولى اسعد منى .. قليل من  
الرجال احسوا بأرواحهم تتفتح للحياة تحت سماء اجمل وفى وفاق  
وتفاهم وسعادة للحاضر وامل للمستقبل كما احسست انا . كنت  
محاط بكل المزايا التى يتمتع بها السيد فى بلد يكفى لونه فيها  
ان يحبوه الجميع بكل ما تريد النفس من بهجة وسعادة ، واقضى  
حياتى بجوار الكائن الذى اكن له كل الحب فى بلد الصيف فيها



دائم والطبيعة رائعة . اكنت بحاجة الى اكثر من هذا لكى اتق ثقة  
عمياء فى نجمى السعيد ، ولكى اقول ان قليلا من الرجال قضوا  
سنواتهم الاولى اسعد منى ؟  
وتوقف النقيب لحظة كما لو كان الكلام قد شق عليه ازاء هذه  
الذكريات السعيدة .

- ٥ -

استطرد يقول فى صوت اكثر ثباتا :

- وسط هذه الاوهام وهذه الآمال العمياء بلغت العشرين من  
عمرى . . كان يجب ان تتم هذه الآمال فى شهر اغسطس سنة ١٧٩١ ،  
وحدد عمى هذا الوقت لارتباطى بمارى . ولعلكم تفهمون بسهولة  
ان فكرة هذه السعادة الوشيكة كانت تشغل كل كيانى ، وكل ما عدا  
ذلك كان غامضا بالنسبة لى ، وخاصة الاحداث السياسية التى كانت  
تدور فى ذلك الوقت ، فقد كانت الاضطرابات تسود المستعمرة منذ  
سنتين ، وقد اهاجت هذه الاضطرابات الجميع وان كان لا يهتمون  
الا بالكوارث التى تسببت فيها .

وقد حدث ذات مرة ان اشتركت مشاركة فعالة فى جدل  
سياسى ، وكان ذلك بمناسبة صدور قرار فى ١٥ مايو سنة ١٧٩١  
ساوت فيه الجمعية الوطنية العمومية بين الرجال الملونين والبيض  
فى الحقوق السياسية ، وفى احدى الحفلات الراقصة التى اقامها  
المحافظ فى مدينة الكاب تجمع كثير من المستوطنين وراحوا ينتقدون  
بحماس كبير هذا القانون الذى يجرح كرامة البيض جرحا شديدا  
القسوة ، ولم اكن قد اشتركت فى هذا الجدل بعد عندما رايت مزارعا  
ثريا يقترب منهم ، وكان البيض يقبلونه بينهم بكل صعوبة لان لونه  
كان مشكوكا فيه . وتقدمت فجأة نحو هذا الرجل وقلت له فى  
صوت مسموع :

Looloo

www.dvd4arab.com

— انصرف ايها السيد فان القوم يقولون عنك اشياء كثيرة بفيضة  
بسبب الدم المخلط الذي يجرى فى عروقك .

اثارته هذه التهمة الى حد انه طلبنى للمبارزة ، وقد جرح كل منا  
فى هذه المناسبة ، وكنت مخطئا حقا حين تحدثته ، واعترف بذلك ،  
ومن الطبيعى ان تعصب اللون لم يكن يكفى وحده لكى يدفعنى الى  
ما فعلت ، ولكن هذا الرجل كان قد تجاسر اخيرا على رفع عينيه الى  
ابنة عمى ، وفى اللحظة التى امتهنت نفسى فيها بهذه الطريقة غير  
المتوقعة كان قد فرغ من مراقبتها .

ولم يكن لى من شاغل يشغلنى الا سعادتى المقبلة بحيث لم الحظ  
السحابة التى غطت كل افقنا تقريبا ، والتى كان لابد ان تنفجر وتقتلع  
جميع الكائنات ، وليس معنى هذا ان النفوس ، حتى اشدها هلعا  
وجزعا كانت تتوقع ثورة المبيد بصفة جبوية ، فقد كانوا يحتقرون  
هذه الطبقة ولا يخشونها . ولكن كان هناك فقط ، بين البيض  
والنحاسين الاحرار ما يكفى من الحقد لكى يتفجر هذا البركان المغلوب  
على امره منذ وقت طويل ويدمر المستعمرة كلها فى اللحظة التى لم  
يكن احد يتوقعها منهم .

وفى الايام الاولى من شهر اغسطس المذكور الذى كنت انتظره  
بكل الامانى والامال وقع حادث غريب اضاف الى هذه الامال الهادئة  
قلقا لم اكن اتوقعه .

- ٦ -

كان عمى قد اقام على شواطئ جدول جميل يحيط بمزارعه  
استراحة صغيرة من اغصان الشجر وسط دغل صغير كانت مارى  
تذهب اليه كل يوم تستجم فيه وتستنشق نسمات البحر الحلوة  
التي تهب بانتظام طوال شهور السنة الحارة على جزيرة سانتو دومينجو  
من الصباح حتى المساء والتى كانت برودتها تزداد وتخفض حسب  
حرارة اليوم نفسه .

Looloo

www.dvd4arab.com

و ذات صباح جاءتني ماري وهي تنتنفص ذعرا ، فقد دخلت  
الاستراحة المخضرة كعادتها ، وهناك رأت لدعشتها البالغة وفزعها  
الشديد كل الزهور التي كنت قد جمعتها وفرشت بها الخلو في  
صباح اليوم نفسه قد انتزعت مكانها وديست بالأقدام ووضع مكانها  
باقة من الاقحوان البري يدل مظهرها على انها قطفت حديثا ، في  
نفس المكان الذي اعتادت الجلوس فيه وسمعت أنين قيثارة يأتي من  
الدغل الذي يحيط بالاستراحة ، ثم صوتا غير صوتي راح يقنى في  
نفمة رقيقة اغنية باللغة الاسبانية ، كما بدا لها لم تفهم منها  
شيئا لقرط قلقها ، فيما عدا ان اسمها تكرر فيها كثيرا . وعندئذ  
اسرعت بالهرب ، وبحسن الحظ لم يعقها شيء عن ذلك .

ملا تني هذه القصة غضبا وغيرة وتركزت تخميناتي الاولى على  
النحاس الذي تشاجرت معه اخيرا . وطمانت ماري المسكينة وعاهدت  
نفسى على السهر عليها دون انقطاع حتى اللحظة القريبة التي يسمح  
لي فيها بأن ادود عنها بطريقة اكثر فعالية .

وحدثت ان ذلك السفيه لن يقتصر على هذه المحاولة الاولى لكي  
يطلعها على ما خمنت انه حبه فترصدت في نفس الليلة بجوار  
المسكن الذي تقيم خطيبتى فيه ، بعد ان اخلد الجميع الى النوم  
واختبات بين اعواد القصب وخنجرى في يدي وانتظرت . ولم يضع  
انتظارى سدى ففى نحو منتصف الليل ارتفعت مقدمة موسيقية  
حزينة وخفيفة قطعت حبل الصمت ، على بعد خطوات منى وأثارت  
اهتمامى فجأة . وهزنى هذا الصوت هزة كبيرة ، فقد كان صوت  
قيثارة ، وتحت نافذة ماري بالذات . وتملكنى الغضب فاندفعت نحو  
المكان الذي يصدر منه الصوت محطما تحت قدمى سيقان أعواد  
قصب السكر وشاهرا خنجري في يدي . وفجأة احسست بشخص  
يمسكنى ويطرحتى ارضا في قوة عجيبة وينتزع خنجري من يدي  
في عنف ورايت الخنجر يلمع فوق راسى ، ورايت في نفس الوقت  
عينين تتالقان فى الظلام على مقربة من عيني وصنيتين من الاسنان

البيضاء انفتحتا وقال صاحبهما فى غضب : انك وقعت فى يدى ..  
انك وقعت فى يدى .

كانت الدهشة التى المت بى أكثر من الفزع الذى اعترانى ورحلت  
اناضل خصمى فى صمت . واوشك الخنجر ان يمزق ثيابى عندما  
بدت مارى عند النافذة وقد ايقظتها صوت القيثارة والعراك .  
وعرفت صوتى ورات وميض الخنجر فاطلقت صيحة فزع وخوف .  
وشلت صيحتها المذعورة يد غريمى فتوقف كالدهول ، كما لو انه وقع  
تحت سحر واخذ يحرك الخنجر بضغ مرآت فوق صدرى مترددا ثم  
القى به بعيدا وهو يقول : كلا ، كلا ... انها ستبكى كثير .

واذ فرغ من هذه الكلمات الغريبة اختفى بين الاغصان قبل ان اتمكن  
من الوقوف . فقد شلت هذه المعركة الغريبة غير المتكافئة قواى  
لبضع لحظات ولم يبق اى صوت ولا اى اثر لوجوده او مروره .

ويتعذر على ان اقول ما مر بى فى هذه اللحظة التى افقت فيها  
من دهشتى الاولى بين ذراعى محبوبتى مارى التى ابقانى لها  
ذلك الذى يبدو انه يريد ان يناقسنى فيها . وازداد سخطى وغضبى  
من هذا الغريم غير المتوقع ، واحسست بالخجل لاننى ادين له  
بحياتى .

فقد كان هناك بعض الكرم فى الاحساس الذى دفع غريمى المجهول  
للإبقاء على ، ولكن من يكون هذا الغريم ؟ .. انتابتنى الشكوك ، وهى  
شكوك اخذت تتبدد الواحد بعد الآخر . لا يمكن ان يكون هو ذلك  
المزارع الخلاص الذى اشارت اليه غيرتى فى بادىء الامر ، فانه لم  
يكن يملك مثل هذه القوة الهائلة ، ثم ان الصوت لم يكن صوته .  
ان الشخص الذى تعاركت معه بدا لى عاريا حتى خصره ، والعبيد  
فقط هم الذين يرتدون بهذه الطريقة ، ولكن لا يمكن ان يكون  
ذلك الرجل عبدا فان المشاعر التى دفعته الى القاء الخنجر بعيدا  
لا يمكن ان تصدر من عبد ، ثم ان كل شئ فى كيانى كان يرفض  
الافتراض المهين فى ان يكون غريمى عبدا ، فمن يكون اذن ؟ ...  
وقررت ان انتظر وان اتربص .

Looloo

www.dvd4arab.com

كانت ماري قد ايقظت المربية العجوز التي تقوم لها بمقام الام التي فقدتها وهي لا تزال في المهد . وقضيت بقية الليل الى جوارها ، وما ان طلع النهار حتى اطلعت عمى على هذه الاحداث الفاضة . وكانت دهشته بالفة ، ولكن كبرياءه ابت ان يكون عاشق ابنته المجهول عبدا ، وهو الامر الذي افترضته انا . واصدر اوامره للمربية الا تفارق ماري ابدا ، وسمح لي بمرافقة ماري في كل نزهاتها حتى يوم زفافنا ، وكان قد تحدد في يوم ٢٢ اغسطس .

وامر في نفس الوقت ان توضع حراسة شديدة على اسوار املاكه ليلا ونهارا معتقدا ان العاشق لم يات الا من الخارج .

وبعد اتخاذ هذه الاحتياطات رايت ، بالاتفاق مع عمى ان اقوم بتجربة فمضيت الى الاستراحة على شاطئ النهر واصلحت فوضى الامر ، واعدت تجميلها بالزهور كما اعتدت ان افعل من اجل ماري . وعندما حانت ساعة ذهابها اليها كالمعتاد تسلحت بفدارتي بعد ان حشوتها وعرضت على ابنة عمى ان ارافقها حتى الاستراحة ، وتبعتنا المربية العجوز .

ولم اكن قد اخبرت ماري انني ربت الاستراحة واخفيت الآثار التي افزعتها بالامس . وسبقتنا هي الى الدخول ، وما كادت تفعل حتى قالت :

— ارايات يا ليوبولد ؟ .. ان الاستراحة ما زالت في نفس حالة القوضى التي تركناها بها بالامس . وها هي زهورك التي انتزعت واذبلت .

واردفت تقول وهي تأخذ باقة من الافحوان البري ملقاة على المقعد : وان ما يدهشني هو ان هذه الباقة البشعة لم تدبل منذ الامس . انظر ايها الصديق العزيز ... انها تبدو كما لو كانت قد قطفت منذ لحظات .

وكننت قد تسمرت مكاني لفرط ما انتابني من دهشة وغضب .  
والواقع ان عملي الذي انجزته في الصباح كان قد دمر تماما ، وهذه  
الزهور الحزينة التي ادهشت نضارتها ماري كانت قد وضعت بكل  
وقاحة مكان الزهور التي قطفتها في الصباح .

وقالت ماري وهي ترى اضطرابي : تجمل بالهدوء ايها الحبيب  
فهذا شيء قد انتهى . ان هذا الوغد لن يعود الى هذا العمل دون  
شك . لنضع كل هذا عند اقدامنا ، وكذلك هذه الباقة البشعة .

ولم اشأ ان اذكر لها الحقيقة اشفاقا من اخافتها . ولم اقل  
لها ان ما كان يجب الا يقع طبقا لها قد وقع ، وتركها تدوس  
باقة الاقحوان بقدميها وهي تتميز سخطا وغضبا بريئين ، ثم اجلستها  
في صمت بيني وبين المربية العجوز وانا اقول لنفسي ان الساعة قد  
ازفت لكي اعرف غريمي المجهول .

ولكننا ما كدنا نأخذ مجلسنا حتى وضعت ماري اصبعها على فمي ،  
فان بضعة اصوات اوهنها الريح وخرير الماء تناهت الى اذنيها .  
واصفيت .. كانت هي نفس المقدمة الحزينة البطيئة التي اثارت  
غضبي في الليلة الماضية . وارتدت ان اندفع الى الخارج ولكن ماري  
منعتني وهي تقول في صوت خافت :

— ليوبولد ... تما لك نفسك . امله سيفنى ، ولا شك ان كلماته  
ستخبرنا بهويته .

والواقع ان صوتا شاكيا تدل نبراته على انه الرجل ارتفع في  
نفس الوقت من اعماق الغابة ، ومعه نفثات القيثارة الخفيفة باغنية  
اسبانية عاطفية رنت في اذني بقوة بحيث لا زلت اذكر كلماتها حتى  
اليوم :

« لماذا تهربين مني يا ماري .. لماذا تهربين مني يا فتاة ؟ ..  
ولم هذا الخوف عندما تسمعيني ؟ .. انني في الواقع رهيب ولكنني  
اعرف الحب والعذاب والفناء .

« فعندما اري صورتك الرقيقة النقية تتسلل خلال سيقان اشجار



وسكت الكلب على الفور وعاد فرقد عند قدمي سيده حيث فرغ  
من التهام بعض الطعام الحقيق . وكنت مرتديا ثيابي العسكرية ،  
وكان النور المنبعث من نافذة الزنزانة الضيقة ضعيفا بحيث ان  
بيرو لم يكن باستطاعته تمييز ملامحي .

قال يخاطبني في صوت هادي : اننى مستعد .  
واذ فرغ من هذه العبارة قام نصف قومة وعاد يقول : اننى  
مستعد .

قلت له وقد دهشت وانا اراه حرا في حركاته : كنت اظن انك  
مكبل بالسلاسل الحديدية .

وكان صوتي يتهدج لفرط الانفعال . وبدا ان السجين لم يعرف  
صوتي فقد دفع بقدمه بضع بقايا اصدرت رنيانا وقال : السلاسل  
الحديدية ؟ .. اننى حطمتها .

وكان في اللهجة التى نطق بها هذه الكلمات شيئا بدا كأنه يقول :  
« اننى لم اخلق لكى اكبل بالسلاسل » . وعدت اقول :  
— ولم يقل لى احد انهم تركوا معك كلبا .  
— بل أنا الذى ادخلته .

ازدادت دهشتى ، فان باب الزنزانة كان مغلقا من الخارج  
برتاج ضخمة ، وكان عرض النافذة لا يزيد عن ست بوصات ، ثم  
انها كانت مزودة بقضيبين من الحديد . ويبدو انه ادرك ما يحول  
براسي لانه نهض بقدر ما سمحت له القبة المنخفضة ونزع دون اى  
جهد حجرا ضخما تحت النافذة ورفع القضيبين الحديدين المثبتين  
بهذا الحجر محدثا بذلك فتحة يمكن لرجلين ان يمرا منها بسهولة .  
وكانت هذه الفتحة تفضى الى غابة من اشجار الموز وجوز الهند  
تكسو التل الذى شيد الحصن فوقه .

الجمتنى الدهشة . وفجأة سقط ضوء النهار على وجهى بحدة  
واعتدل السجين كما لو انه وضع قدميه سهوا على ثعبان ، وارطم  
جبينه باحجار القبة وارسم على وجهه مزيج من المشاعر المختلفة

سمعتها . وتملكتنى رغبة قوية فى ان افرغ من هذا الكائن المجهول الذى تجاسر على اشراك اسم ماري فى اغان غرامية وتهديدات واخذت غدارتى واسرعت خارج الاستراحة . وذعرت ماري ومدت يدها لاحتجازى ، ولكننى كنت قد اندفعت الى الغابة حيث جاء الصوت . وفتشت كل ناحية وكل مكان ، واخذت اضرب فى الاحراش بفشارتى وادور بالاشجار الضخمة ، وحركت كل الاعشاب ولكن لا شىء .. لا شىء .. ودائما لا شىء .. وزاد هذا التفتيش وافكارى المشوشة من جراء الاغنية التى سمعتها من ارتباكى وقلقى .

وايقظنى من احلامى صوت جرس فتحولت الى ناحيته ورايت القزم هاببراه بجوارى .

قال لى وهو ينحنى فى احترام : صباح الخير يا مولاي .  
ولكن خيل لى ان فى نظرتيه الحواء التى يرمينى بها فى انحراف غريب مزيجا من الخبث والفرح لما يراه من قلق على جبينى .

وصحت به فجأة اقول : تكلم ... هل رايت احدا فى الغابة ؟  
— لم ار احدا غيرك انت يا مولاي .  
وعدت اسأله : الم تسمع صوتا ؟

بقى العبد لحظة كما لو كان يحاول ان يبحث عن رد ، وكنت اغلى ، فصحت به :

— عجل .. اجب حالا ايها الشقى .. هل سمعت صوتا هنا ؟  
حملق بجراة بعينيه المستديرتين اللتين بدتا اشبه بعينى قطرة متوحشة فى عينى واجاب :

— ماذا تعنى بصوت يا مولاي ؟ .. هناك اصوات فى كل ناحية وفى كل مكان . هناك اصوات العصافير وصوت الماء وصوت الريح بين الاوراق ...

قاطعته وانا اهزه فى عنف وقلت : ايها المهرج الواقع ... كف عن التلاعب بى والا اسمعتك عن قرب الصوت الذى يخرج من فوهة هذه الفدارة . اجبنى باربع كلمات ... هل سمعت فى هذه الغابة رجلا يفنى باللغة الاسبانية ؟ .

Looloo

www.dvd4arab.com

اجابنى دون ان يبدو عليه التأثير : نعم يا مولاي .. وسمعت كلمات من الريح كذلك .. سأخبرك بما هناك ... كنت انتزه فى الغابة مصفيا الى ما تقوله اجراس طاقيتى فى اذنى . وفجأة انضمت الريح الى هذه الحفلة الموسيقية وازافت بضع كلمات بلغة تدعوها انت الاسبانية .. واننى احب هذه اللغة فهى تذكرنى بالوقت الذى كنت فيه طفلا ولم اكن مجنونا بعد فاقتربت من الصوت وسمعت آخر الاغنية .

قلت فى فروغ صبر : حسنا ... اهذا كل شيء ؟

وفى هذه اللحظة دوت صيحة مخيفة داخل الاستراحة ... وكانت مارى هى التى اطلقتها فاندفعت واسرعت ، بل طرت طرانا وانا اتسائل مسبقا وفى زعر عن المصيبة الجديدة التى لم يكن فى وسعى الا ان أخشأها . ودخلت الاستراحة وأنا الهث ، واذا بى يطالعنى منظر مخيف فقد رايت تمساحا ضخما يختفى نصف جسده فى طين النهر ويمر براسه الهائلة من خلال السكتل الخشبية التى يقوم فوقها سطح الاستراحة ، وقد فطر قمه الكبير الابيض مهددا شابا اسود هائل البنية كان يحيط باحدى ذراعيه الفتاة المدعورة ويغمد بالاخري فى جراحة نصل حربيته بين فكى الوحش الحادين . وكان التمساح يناضل ، فى غضب ، تلك اليد الجريئة التى توقفه عند حده . وفى اللحظة التى بلغت فيها عتبة الاستراحة اطلقت مارى صيحة فرح وانتزعت نفسها من ذراع الزنجى واسرعت والقت بنفسها بين ذراعى وهى تصيح :

— اننى نجوت !

وعند هذه الحركة منها ، وعند هذه العبارة التى اطلقتها تحول العبد فجأة وعقد ذراعيه فوق صدره المنتفخ ورمى خطيبتى بنظرة اليمة ووقف جامدا دون ان يبدو عليه انه يدرك ان التمساح موجود على مقربة منه وانه تخلص من الحربة ويهم بالتهامه . وكانت نهاية الاسود الشجاع مؤكدة لو لم ادفع بمارى بسرعة واضعها فوق ركبتي

مربيتها العجوز التى تنتفض لفرط الخوف ثم اقترب من التمساح  
وافرغ رصاص غدارتى فى فمه . وصعق الحيوان على الفور  
وانقلب على ظهره محدثا صوتا كبيرا وتوترت قائمته وقد فاضت  
روحه .

وحول الزنجى الذى انقذته لحسن الحظ راسه ورأى الاختلاجات  
الآخرة للتمساح وخفض عينيه الى الارض ثم رفعهما فى بضع نحو  
مارى التى كانت قد نهضت وأسمرت بين ذراعى وقد اطمأنت اذ ابتعد  
عنها الخطر وخاطبني قائلا :  
- لماذا قتلته ؟

وكان صوته يفيض بالياس ، ثم ابتعد فى خطوات كبيرة . دون ان  
ينتظر منى جوابا وعاد الى الوغل حيث اختفى .

## - ٩ -

ارجعنى هذا المشهد الفظيع وهذه النهاية الفريية والانفعالات التى  
سبقتهما وابحائى غير المجدية وتبلبلت افكارى . وكانت مارى لا تزال  
تعانى من هلعها بحيث مضى وقت قبل ان نستطيع ان نتبادل افكارنا  
المضطربة فيما عدا بالنظرات وبضبط الايدى . واخيرا قطعت جبل  
الصمت قائلا :

- تعالى يا مارى ، فلنخرج من هنا . . . ان فى هذا المكان شيئا  
من النحاس .

وسألها عندئذ كيف جاءت هذه النجدة العجيبة من ذلك الرجل  
الاسود فى ساعة الخطر الفظيع الذى تعرضت له ، واذا كانت تعرف  
من هو هذا العبد ، لان سرواله الخشن يدل على انه ينتمى الى  
ادنى طبقة من اهالى الجزيرة . وقالت لى :

- لا ريب انه من عبيد ابى ، ولا ريب انه كان يعمل بجوار النهر  
فى نفس اللحظة التى ظهر فيها التمساح وجعلنى اطلق الصيحة التى

انذرتك بالخطر الذى استهدفت له . كل ما اسطيع قوله هو انه  
وثب من الغابة واسرع لنجدي .

سالتها : من اية ناحية اقبل ؟

- من الناحية المضادة لتلك التى صدر منها الصوت منذ لحظات  
والتي اندفعت انت نحوها .

قلب هذا الحادث العجيب المقارنة التى لم يسعنى الا أن اقيمها  
فى ذهنى رأسا على عقب ، فان هذا الرجل المديد القامة والذى  
يتمتع بقوة خارقة كان يمكن تماما أن يكون هو الفريم المخيف الذى  
اشتبكت معه فى الليلة الماضية . ثم أن صدره العالى يكاد يكون دليلا  
قاطعا على ذلك فان المفنى قال انه ملك ولم يكن هذا الرجل غير  
عبد ، ولكننى تذكرت فى شيء من الدهشة سمات الخشونة والجبروت  
المرسومة على وجهه وسط العلامات المميزة لجنسيته الافريقية ،  
ووميض عينيه وبياض أسنانه مع بشرته السوداء اللامعة ، وجبينه  
العريض ، وهو شيء مذهش فى أى رجل اسود ، ونفخة الانتصار  
التي تعطى لشخانة شففيه ومنخره شيئا من الأنفة والعظمة ، ونبل  
هيئته ووسامة تقاطيعه التي تدل على نمو هرقل على الرغم مما أصابها  
من تحول وذل نتيجة لعمل يومى مرهق . وتخيلت المنظر الرهيب  
لهذا العبد فى مجموعة وقلت لنفسى انه يمكن أن يتناسب تماما مع  
ملك ، وعندئذ جمعت أحداثا كثيرة وربطت بينها وتوقفت ظنوني  
برعشة من الغضب على هذا العبد الوقح ، وأردت أن ابحث عنه  
لمعاقبته ولكن لم تلبث أن عادت حيرتى الى . هل يجب أن ابني اتهامى  
الخطير على مثل هذه الحجج الواهية فأسلم هذا العبد الى عمى  
لكى ينتقم لكبريائه رغم انه عرض نفسه للخطر لاتقاذ مارى .

وفى نفس اللحظة التي ثارت فيها افكارى هذه ضد غضبى بددتها  
مارى تماما بأن قالت فى صوت رقيق :

- أى حبيبى ليوبولد . . . انا ندين لهذا الزنجى الشجاع بالعرفان  
والجميل ، فلولاه لكنت الآن من الهالكين ، ولانيت انت بعد قوات  
الآوان . .

Looloo

www.dvd4arab.com

كان لهذه الكلمات الرقيقة أثرا قاطعا .. فهي لم تغير رغبتى  
فى البحث عن العبد الذى أنقذ مارى ولكنها غيرت الفرض منه ،  
فقد كنت أريد البحث عنه لمعاقبته وأصبحت أريد الاهتداء اليه الآن  
لكافاته .

وعلم عمى منى انه يدين بحياة ابنته الى احد عبيده ووعدنى بأن  
يمنحه حريته اذا استطعت الاهتداء اليه بين هذا الحشد من  
البائسين .

### - ١٠ -

وحتى ذلك اليوم ، كان الاستعداد الطبيعى للذهنى قد أبعثنى  
عن المزارع حيث يشتغل الرجال السود ، فقد كان يشق على ان  
ارى اناسا فى مقدورى التخفيف عنهم يتعذبون . ولكن منذ صباح  
اليوم التالى عرض على عمى ان أرافقه فى وديته التى يقوم بها  
التفتيش . وأسرت بالقبول على أمل أن التقى بين العبيد بمنقذ  
محبوبتى مارى .

وقد استطعت ان ارى خلال هذه النزهة مدى تأثير نظرة عمى  
على هؤلاء العبيد ، وان اعلم فى نفس الوقت ان هذه القوة تشتري  
بشئ فادح ، فان الزوج كان يتولاها الاضطراب امام عمى ويضاعفون  
من جهدهم ونشاطهم ، ولكن الخوف الذى كان يبدو فى عيونهم  
كان يشوبه حقد دفين .

وكان عمى بطبعه سريع الغضب ، وكان على استعداد لان يحتد  
لانه لم يجد ما يستدعى غضبه فى ذلك اليوم ، عندما اثارت  
ضحكة هابيرا انتباهه فجأة الى رجل اسود ارقه التعب ورقد  
فى اجمة صغيرة بجوار جذع نخلة . وأسرع عمى الى ذلك التعس  
وأيقظه من نومه فى غلظة وخشونة وامره أن يعود الى العمل  
فورا . واستولى الغزع على الزنجى فنهض وكشف بذلك عن شجرة



صغيرة من الورد كان عمى قد استوردها من البنيال وراح يتعهدها  
بنفسه . وجن جنون عمى وهو يرى ان الشجرة قد تلفت ، وكان  
غضبه لا حد له لما اسماه كسل الزنجى فاذا به يزداد وهو يرى  
الشجرة التالفة . وخرج عن طوره وفك من حزامه السوط ذى  
الشعب الحديدية ، وكان يحمله معه دائما اثناء طوافه ورفع ذراعه  
لكى يهوى بالسوط على الزنجى الذى جثا على ركبتيه طالبا  
الرحمة . ولم يهو السوط على الرجل ، ولن انسى ابدا هذه اللحظة  
فان يدا قوية اوقفت يد عمى فجأة ، وكانت هى يد الزنجى الذى  
ابحث عنه . وصاح صاحبها يقول :

— عاقبنى انا لاننى قد اهنتك الآن ، ولكن اصفح عن هذا  
الرجل فهو لم يلمس غير الشجرة .

هذا التدخل غير المتوقع من الرجل الذى ادين له بحياة مارى .  
وحركته ونظراته واللهجة الحاسمة فى صوته ، كل هذا اثار  
دهشنى . ولكن تهوره الكريم بدلا من ان يجعل عمى يشعر بالخجل  
زاده سخطا وحنقا وحول غضبه من العبد المسكين الى متقده ،  
فتخلص من ذراع الزنجى الضخم وهو يعنفه ويتوعده ، ورفع سوطه  
من جديد لكى يضربه هو به . ولكن الزنجى انتزع السوط من يده  
فى هذه المرة وحطم قبضته المزودة بالمسامير كما او كان يحطم عودا  
من القش ثم داس بقدمه تلك الاداء الحقيرة للتعذيب .

وتسمرت مكائى لفرط الدهشة وتسمر عمى لفرط الغضب ..  
كان هذا شيئا عجيبا ... ان يرى نفوذه يهان بهذه الطريقة ...  
واختلجت عيناه كما لو كانتا تريدان الخروج من محجريهما  
وارتعشت شفتاه الزرقاوان . وتامله الزنجى لحظة فى هدوء ثم قدم  
اليه فجأة ، وفى وقار بلطة كان يمسكها فى يده وقال :

— ايها الرجل الابيض ... اذا اردت ان تضربنى فأضربنى بهذه  
البلطة على الاقل .

ولم يستطع عمى ان يتمالك نفسه . وكان حريا ان يلقى أمنية

الزنجى بكل تأكيد ، فمد يده لى يأخذ البلطة ولكننى كنت اسرع  
انىها منه فامسكت بها والقيت بها فى بئر قريب . وصاح عمى  
فى حدة :

- ماذا فعلت ؟

أجبت : اننى انقذتك من مصيبة فانك اوشكت ان تقتل  
من انقذ ابنتك . انك تدين بحياة ابنتك مارى لهذا العبد ... هذا  
الزنجى هو الذى وعدتنى ان تمنحه حريته .

لم تكن اللحظة مناسبة لى اذكره بوعده هذا ، وقد مست كلمائى  
ذهن عمى المقروح ، واجابنى فى لهجة كئيبة :

- امنحه حريته ؟ .. نعم . انه استحق حريته حقا .. ولكننا  
سنرى اية نوع من الحرية سيمنحها له قضاة المحكمة العسكرية .

جمدت هذه الكلمات الكثيرة الدم فى عروقى وتوسلت اليه انا  
ومارى بدون جدوى . وقد جوزى العبد الذى تسبب فى هذا المشهد  
بالجلد . اما منقذه فقد اقتيد الى زنانات حصن جاليفيه متهما بانه  
رفع يده على رجل ابيض ، وهى جريمة كان يعاقب عليها دائما  
بالموت .

## - ١١ -

ولعلمكم تقدرون ايها السادة الى اى مدى اثارت هذه الظروف  
اهتمامى وفضولى . واستقيت المعلومات عن الاسير ، وقد كشفت  
لى هذه المعلومات اشياء كثيرة ، فقد قيل لى ان زملاء هذا الزنجى  
يدون نحوه اعرق امارات الاحترام ، فعلى الرغم من انه كان عبد  
مثلهم الا انه كانت تكفيه مجرد اشارة منه لى يسرعوا الى تلبية  
اوامره ... لم يولد فى الاكواخ ولا يعرف احد له ابا او اما ، وقد  
قيل ان احدى بواخر العبيد القته فى جزيرة سانتو دومينجو منذ  
سنوات قليلة ، وكان هذا الامر الاخير فى حد ذاته بشرا العجب

للفؤذ الذى يمارسه على جميع زملائه ، وذلك حتى دون استثناء  
الزئوج الخلاسين ، اى اولئك الذين ولدوا فى جزر الانتيل والذين  
كما تعلمون ايها السادة ، يكونون اشد انواع الاحتقار نحو الزئوج  
الكوفوليين ، وهو تعبير غير سليم وشامل يشار به فى المستعمرة الى  
كل العبيد الذين جىء بهم من افريقيا .

ومع انه كان يبدو سادرا فى حزن عظيم فان قوته الهائلة مضافا  
اليها مرارا عجيبة ، كانتا تجعلان منه موضوعا لأكبر جائزة فى حرث  
المزارع ، فقد كان يدور حول السواقى بأسرع مما يستطيع اى جواد  
ان يفعل ، بل ولمدة اطول . وكان يحدث له احيانا ان ينجز فى يوم  
واحد عمل عشرة رجال من زملائه لكى ينقذهم من العقاب المفروض  
بسبب الاهمال او التعب ، وكان محبوبا من جميع العبيد لهذا  
السبب ، ولكن الاحترام الذى كانوا يكتونه له كان يختلف كل  
الاختلاف عن الفرع الشديد الذى كان يبدو انهم يضمرونه  
لهابيرا . وكان يبدو ان لاحترامهم هذا سببا خفيا . . كان اشبه  
بنوع من العبادة .

وقد قيل لى ايضا ان من الغريب انهم كانوا يرونه على رقعة  
كبيرة وبساطة أكبر مع زملائه الذين كانوا يفتخرون باطاعته ، وانهم  
كانوا يرونه فى نفس الوقت متعاليا ومترفعا مع البعض . ومن  
الحق ان نقول ان هؤلاء العبيد المفضلين كانوا كحلقات اتصال ،  
يربطون بهم حلقة العبودية الى حلقة الاستبداد والظفيان فيضمون  
بذلك خسة ظروفهم الى وقاحة سلطتهم . كانوا يجدون لذة خبيثة  
فى ارهاقهم بالعمل والتأكيد عليهم ، ولكن كان يبدو مع ذلك انه لم  
يكن ينسجم الا احترام شعور الكبرياء الذى دفع الاسير الى اهانة  
عمى ، فان احدا منهم لم يجرؤ ابدا على فرض عقابات مهينة عليه ،  
واذا حدث وان ادين وتعرض لعقاب ما فان عشرين زنجا كانوا  
يهبون لتلقى الجزاء بدلا منه ، فى حين يقف هو مكانه يشهد تعذيبهم  
كما لو انهم لم يفعلوا الا ما يمليه عليهم الواجب . . . هذا الرجل  
العجيب كان معروفا فى جميع الانحاء باسم بيريرو .

كل هذه النقاط اثارت خيالي بشكل غريب . وهللت مارى التى كانت تنتفض رحمة واشفاقا لحماسى واستولى ببيرو بكل حمية على اهتمامنا بحيث استقرت نيتى على رؤيته ومساعدته . وكان يجب ان اجد وسيلة لى اتحدث اليه .

ومع اننى كنت شابا صغيرا جدا فانى ، نظرا الى اننى ابن اخ احد كبار اثرياء مستوطنى الغابة كنت قد عينت ضابطا للمليشيا فى مدينة الاكول . وكان حصن جاليفيه يقع تحت اشرافهم واشراف فرقة من القربان كان على رأسها ضابط صف يشرف عادة على الحصن . وقد اتفق ان كان هذا الضابط فى ذلك الوقت بالذات ابن اخ مستوطن فقير كان من حسن حظى اننى اديت له خدمات كبيرة ، وكان مخلصا لى كل الاخلاص .

قاطع جميع المستمعين دوفرني عند هذه النقطة ، فقد تملكهم ذلك الانفعال الذى يدل على ان القصة قد استحوذت على اهتمامهم . وقال احدهم معبرا عما يشعر به الجميع :

— لا ريب ان هذا الضابط صف كان ثاديه ؟

استأنف النقيب قصته قائلا : انكم اصبتم التخمين . وستفهمون دون مشقة انه لم يتعذر على الحصول منه على اذن بدخول زنزانة الزنجى ، فقد كان لى الحق فى زيارة الحصن بصفتى قائدا للمليشيا . ومع ذلك ، ولكى لا اثير شبهات عمى الذى كان غضبه لا يزال فى حدته حرصت على ان اذهب اليه فى الوقت الذى يهجع فيه الى قيلولته . وكان جميع الجنود نائمين فيما عدا الحراس . وقادنى ثاديه الى الزنزانة وفتح بابها ثم انسحب . ودخلت .

كان الاسود جالسا لانه لم يكن يستطيع الوقوف بسبب قامته المديدة . ولم يكن وحده بل كان معه كلب ضخم نهض وهو يزجر وتقدم نحوى . ولكن الاسود صاح به : راسك !

وسكت الكلب على الفور وعاد فرقد عند قدمي سيده حيث فرغ  
من التهام بعض الطعام الحقيق . وكنت مرتديا ثيابي العسكرية ،  
وكان النور المنبعث من نافذة الزنازة الضيقة ضعيفا بحيث ان  
بيرو لم يكن باستطاعته تمييز ملامحي .

قال يخاطبني في صوت هادىء : اننى مستعد .  
واذ فرغ من هذه العبارة قام نصف قومة وعاد يقول : اننى  
مستعد .

قلت له وقد دهشت وانا اره حرا في حركاته : كنت اظن انك  
مكبّل بالسلاسل الحديدية .

وكان صوتي يتهدج لفرط الانفعال . وبدا ان السجين لم يعرف  
صوتي فقد دفع بقدمه بضغ بقايا اصدرت رنيئا وقال : السلاسل  
الحديدية لا .. اننى حطمتها .

وكان في اللهجة التى نطق بها هذه الكلمات شيئا بدا كأنه يقول :  
« اننى لم اخلق لكى اكبل بالسلاسل » . وعدت اقول :

— ولم يقل لى احد انهم تركوا معك كلبا .

— بل انا الذى ادخلته .

ازدادت دهشتى ، فان باب الزنازة كان مغلقا من الخارج  
برتاج ضخمة ، وكان عرض النافذة لا يزيد عن ست بوصات ، ثم  
انها كانت مزودة بقضيبين من الحديد . ويبدو انه ادرك ما يجول  
براسي لانه نهض بقدر ما سمحت له القبة المنخفضة ونزع دون اى  
جهد حجرا ضخما تحت النافذة ورفع القضيبين الحديدين المثبتين  
بهذا الحجر محدثا بذلك فتحة يمكن لرجلين ان يمرا منها بسهولة .  
وكانت هذه الفتحة تفضى الى غابة من اشجار الموز وجوز الهند  
تكسو التل الذى شيد الحصن فوقه .

الجمتى الدهشة . وفجأة سقط ضوء النهار على وجهي بحدة  
واعتدل السجين كما لو انه وضع قدميه سهوا على ثعبان ، وارتطم  
جبينه بأحجار القبة وارتسم على وجهه مزيج من المشاعر المختلفة

المتناقضة ، وبدأت فى عينيه نظرة غريبة فيها تعبير من الحقد والعرفان والدهشة المؤلمة . ولكن سرعان ما تما لك نفسه وعاد الهدوء والبرود الى وجهه فى اقل من دقيقة ، وحقق فى وجهى فى غير اكتر اث وواجهنى كما لو كنت غريباً عنه وقال :

— أستطيع ان اعيش يومين آخرين من غير ان اتناول اى طعام .  
أتيت بحركة تدل على الاستنكار ، ولاحظت عندئذ مدى نحول الرجل . واردف هو يقول :

— كلبى لا يستطيع ان ياكل الا من يدي ، ولو لم اوسع النافذة مات المسكين من الجوع ... ومن الخير ان اموت انا لا هو ما دام يجب ان اموت .

صحت : كلا ، كلا . انك ان تموت من الجوع .

لم يفهمنى وعاد يقول وهو يبتسم بمرارة :

— فى مقدورى بلا شك ان اعيش يومين آخرين دون ان اتناول طعاماً ، ولكننى على استعداد الآن يا سيدى الضابط ، فاليوم خير من الغد . ولكن لا تؤذ راسك .

ادركت عندئذ معنى ما يقصده من قوله بأنه على استعداد ، فقد كان متهما بجريمة عقوبة الموت ، وحسب اننى أتيت لى اقتاده الى ساحة الاعدام . وراح هذا الرجل الموهوب بهذه القوة الهائلة يقول فى هدوء وفى رقة طفل « اننى على استعداد » مع ان كل وسائل الهرب كانت متوفرة لديه .

وقال للمرة الثانية : لا تؤذ راسك .

ولم استطع ان اتمالك نفسى عندئذ فقلت : ما هذا .. انت لا تحسبنى جلادك فحسب ، وانما تشك فى انسانيتى نحو هذا الكلب المسكين الذى لم يفعل بى شيئاً ؟

لانت ملامحه وتغير صوته وهو يقول باسطق الى يده :

— اغفر لى ايها الرجل الابيض .. فانى احب هذا الكلب .

واردف يقول بعد صمت قصير : ان الرجال البيض الآخرين قد الحقوا بى اكبر الاذى .



عائقته وضغطت على يده وقلت فى رفق : الا تعرفنى ؟  
- كنت اعرف تماما انك ابيض ، والزنجى بالنسبة للبيض ،  
مهما كانت طبيعتهم شيء تافه . وعلى كل حال فان هناك ما اشكوه  
منك .

قلت مشدوها : وما هو ؟

- الم تحفظ لى حياتى مرتين ؟

جعلتنى هذه التهمة الفرية ابتسم ، واذا راي ذلك استطرد يقول  
فى لهجة مريرة :

- نعم ... كان يجب ان احقد عليك ، فانك أنقذتنى من تمساح  
ومن مستوطن . وشر من هذا انك سلبتنى حق كراهيتك .. اننى  
تعيس تماما .

لم تدهشنى لهجته ابدا ولا افكاره الفرية ، فقد كانت تتناسب  
معه ، وقلت له :

- اننى ادين لك بأكثر مما تدين انت لى به . اننى ادين لك  
بحياة خطيبتى مارى .

بدا كان ماسا كهريبا قد اصابه وقال فى صوت مكتوم : ماريا !  
وتهاوت راسه فوق كتفيه اللذين توترا بحدة فى حين ندت من  
صدره زفرات مضنية .

وأعترف ان شكوكى الهاجعة عادت واستيقظت ، ولكن دون اى  
غضب او اية غيرة ، فقد كنت اقرب الى السعادة ، وكان هو اقرب  
الى الموت بحيث لا يمكن لهذا الفريم ، اذا كان هو غريمى حقا ،  
ان يثير فى نفسى اية مشاعر اخرى غير العطف والرثاء .  
ورفع راسه وقال : صه .. لا تشكرنى .

واردف يقول بعد فترة صمت : ومع ذلك فانا لست دونك مرتبة  
وجاها .

كشفت لى هذه الكلمات ناحية فيه اثار فصولى بطريقة كبيرة ،  
واستحلفت ان يخبرنى من هو وما يطاينه من الالم وعذاب ولكنه التزم  
صمتا تاما .

وتأثر كل التأثر بمسعى وبمروءى لخدمته ، وتقبلت توسلاتى على تفرزه واشمئزازه من الحياة فخرج واتى ببعض الموز وبجوزة هند كبيرة ثم أغلق الفتحة وراح يأكل . وفيما انا اتحدث معه لاحظت انه يتكلم الفرنسية والاسبانية بطلاقة تامة وانه ذكى جدا ويعرف اشياء كثيرة . كان يعرف اغان اسبانية كان يترنم بها ويعبر عن معانيها تعبيرا جيدا . كان هذا الرجل غامضا من كل النواحي بحيث لم تدهشنى نقاوة لفته وحاولت من جديد ان اعرف السبب ولكنه اطبق فمه .

وغادرته اخيرا وامرت صديقى المخلص تاديه ان يوليه كل رعاية وكل عناية ممكنة .

## - ١٢ -

كنت امضى كل يوم ، وفى نفس الوقت لزيارة السجين . فقد شغلتنى قضيته . وعلى الرغم من توسلاتى تشبث عمى براه فى مقاضاته ، ولم أخف مخاوفى عن بيرو ، ولكنه كان يصفى الى فى غير اكتراث .

وكان رأسك يأتى أحيانا ونحن معا وحول عنقه ورقة كبيرة من اوراق النخيل ، وكان الزنجى يكفها ويقرأ الرسالة المكتوبة عليها بحروف غريبة ثم يمزقها . واعتدت الالقى عليه اى سؤال .

ودخلت ذات يوم دون ان ينتبه الى ، فقد كان موليا ظهره لبار زنزانته ، وكان يترنم فى رفق بأغنية حزينة باللغة الاسبانية ومطلعها « انما انا المهرب » وعندما فرغ منها تحول الى وقال :

- ايها الأخ العزيز ، اذا اتفق وارتبت بى فعندنى ان تبعد ربيتك عندما تسمعنى اغنى هذه الاغنية .

وكانت نظرتة فاتنة قوعدته بما يريد دون ان ادري ما يعنيه بقوله هذا « اذا اتفق وارتبت بى » ، واخذ قشرة جوز الهند السميقة

التي جاء بها اول يوم وملاها بنبيذ مصنوع من البلح وطلب منى ان اغمس شفتى فيها ثم افرغها فى جوفه مرة واحدة ، ومنذ ذلك اليوم لم يخاطبني الا باخيه .

ومع ذلك فقد بدا الامل يداخلنى من اجله ، فان حدة عمى هذات وسفلت احتفالات زواجى القريب بابنته كل افكاره . وانضمت مارى الى ، وكنت اقول له كل يوم ان بيرو لم يقصد اهانته وانما اراد منعه من ارتكاب عمل مفرط فى القسوة ، وان هذا الرجل الاسود ، بمعركته الجريئة مع التمساح قد انقذ مارى من موت مؤكد ، واننا ندين له ، هو بابنته وانا بخطيئتي ، وان بيرو على كل حال اشد عبيده قوة ( فأننى لم اعد احلم بالحصول على حريته واصبح الامر يتعلق الآن بحياته ) وان فى استطاعته ان ينجز عمل عشرة رجال آخرين وان ذراعه كاف لكى يدير اسطوانات طاحونة السكر . وكان عمى يصفى الى ويداخلنى الامل بذلك بانه قد يتنازل عن دعواه .

ولم اقل للاسود شيئاً عن التبدل الذى طرا على عمى لاننى اردت ان ارى سروره بحصوله على حريته التامة اذا تمكنت من ذلك . وان ما اثار دهشتى هو ان ارى انه على الرغم من معرفته بأن مصيره الموت لم ينتهز اية وسيلة من وسائل الهرب المتاحة له . وتحدثت ليه فى ذلك فاجابنى فى برود :

— يجب ان ابقى فقد يخطر لهم اننى خائف .

— ١٤ —

وذات صباح جاءتنى مارى متألقة الوجه . . كانت قسماتها الحلوة تنطق بشيء اكثر ملائكية من فرحة حب طاهر ، الا وهو فكرة عمل طبيب يتم عن الخير .

قالت لى : اصغ الى . ان يوم ٢٢ اغسطس بعد ثلاثة ايام . وهو يوم زفافنا ، وسنكون قريباً .

Looloo

www.dvd4arab.com

قاطعتها قائلا : لا تقولى قريبا ، فما زالت هناك ايام ثلاثة .

ابتسمت واضطرم وجهها وقالت : لا تجعلنى ارتبك يا ليوبولد .  
لقد خطرت ببالى فكرة سوف تسرك . انك تعلم اننى مضيت امس  
الى المدينة برفقة ابى لشراء مجوهرات زواجى ، وليس ذلك لانى  
اتمك بهذه الحلى وهذه الماسات ، فهى لن تجعلنى اجمل مما انا  
فى عينيك ، واننى لامنح كل درر العالم من اجل زهرة واحدة  
من هذه الزهور التى داسها ذلك الرجل البشع صاحب باقة الاقحوان .  
ولكن لا اهمية لهذا . ان ابى يريد ان يفعمنى بكل هذه الاشياء ،  
وانا اظاهر باننى اريدها لاشيء الا لاسعاده . صفوة القول ، رايت  
امس فستانا جميلا من الساتان الصينى يزهور كبيرة فى صندوق  
من الخشب النفيس ، وقد وقفت اثملة طويلا . . . وهو فستان غال  
جدا ولكنه عجيب ، وقد لاحظت ابى انه راق لى . وفى طريق عودتنا  
سألته ان يهبنى هبة على طريقة فرسان العصور القديمة ، وقد  
افسم بشرفه انه لن يرد لى طلبا مهما يكن ظنا منه اننى اريد هذا  
الفستان . . ولكن لا . . ان ما اريده هو حياة بيرو . . ستكون  
هذه هدية زفانى .

لم يسعنى الا ان اخضم هذا الملاك بين ذراعى ، فان كلمة عمى  
مقدسة . وبينما كانت مارى تمضى لتطالبه بتنفيذ وعده اسرعت انا  
الى حصن جاليقيه لابلغ بيرو بان حريته اصبحت اكيدة .

صحت وانا ادخل : اى اخى . . ابشر ، فانك نجوت . طلبت  
مارى حياتك من ابها هدية بمناسبة زفافها .

اجفل العبد وقال : مارى ! . . زفاف . . حياتى . . كيف يمكن  
ان يتفق كل هذا ؟

قلت : الامر بسيط جدا . . ان مارى التى انقذت انت حياتها  
ستزوج .

صاح العبد وقد شردت عيناه وبدا فيهما الروع : بمن ؟

اجبت فى رفق : الا تعرف ؟ بى انا .

Looloo

www.dvd4arab.com

لانت قلمات وجهه عندئذ وقال فى استسلام : آه ... هذا صحيح ... بك انت ! .. وفى اى يوم ؟  
- يوم ٢٢ اغسطس .

صاح فى فزع : ٢٢ اغسطس ؟ .. هل انت مجنون ؟  
وامسك عن الكلام ، فنظرت اليه مشدوها . وبعد صمت قصير شد على يدى فى قوة وقال :

- اخى .. اننى ادين لك بالكثير بحيث لا بد لى ان انصحك .. صدقتى .. امض الى الكاب وتزوج قبل يوم ٢٢ اغسطس .  
اردت ان اعرف معنى هذه الكلمات الفامضة ، ولكن راحت كل محاولاتي عبثا . وقال اخيرا فى لهجة خطيرة :

- وداعا . لعلى قلت الكثير ولكننى لا اكره شيئا مثلما اكره الجحود والحنث باليمن .

غادرته وكلى تردد وقلق ، ولكننى لم البث ان نسييتهما فى غمرة سعادتى .

وسحب عمى شكواه فى نفس اليوم ، وعدت الى الحصن لاطلاق سراح بيرو . واذا علم تاديه بأن العبد اصبح حرا دخل معى الزنانة ، ولكن بيرو لم يكن بها . وكان راسك موجودا وحده فاسرع الى يتمسح بى ، وكانت فى عنقه ورقة نخيل فاخذتها وقرأت فيها هذه الكلمات : شكرا . انك انقذت حياتى للمرة الثالثة . لا تنس وعدك يا اخى .. وكان التوقيع تحت هذه الكلمات هو « انما انا المهرب » .

كان تاديه اشد منى دهشة ، ولم يكن على علم بسر النافذة فتوهم ان الزنجى تحول الى كلب ، وتركته يعتقد ما يشاء مكتفيا بأن اطالبه بالصمت على ما رآه .

واردت ان اصحب راسك معى ، ولكنه ما ان الفى نفسه خارج الحصن حتى اخذ يعدو نحو السياج ولم يلبث ان اختفى .

استاء عمى لفرار العبد واصدر اوامره بالبحث عنه وكتب الى المحافظ يطلب منه أن يضع بيرو تحت تصرفه اذا عثروا عليه .

واقبل يوم ٢٢ أغسطس . وكان الاحتفال بزواجى بمارى احتفالا فخما فى كنيسة « الاكول » ، وما كان اسعد ذلك اليوم الذى توالى بعده كل مصائبى . كنت ثملا بفرح لا يمكن لاحد أن يشعر به الا اذا مر بما مررت به . وكنت قد نسيت بيرو وتحذيراته المشئومة تماما . وهبط الشفق على هذا اليوم واضطرت ان أنتزع نفسى من بهجتى لان واجبا مملا وضروريا فى نفس الوقت كان يستدعينى ، فان وظيفتى كضابط للمليشيا كانت تتطلب منى ان اقوم فى هذه الليلة بدورية عند ابواب الاكول . وكان هذا احتياطا عسكريا لابد منه لان الاضطرابات قامت فى الجزيرة فجأة ، وتمر السود فى اماكن كثيرة ، ولا ريب ان هذا التمرد قد تم كبحه فورا ولكن المستعمرة كلها كانت تفلى بالاضطرابات منذ شهر يوليو ، فقد صدر الحكم باعدام الخلاسى الحر اوجيه ، احد زعماء المتمردين ونفذ الحكم فازدادت كراهية السود وثقتهم ازاء هذا الانتقام الدامى . وكان عمى اول من ذكرنى بواجبى ، فخضعت على الرغم من مشقة الفراق وارتيديت ثيابى الرسمية ورحلت .

زرت المواقع الاولى دون ان القى ما يحمل على القلق . وكنت اسير فى منتصف الليل وانا اهميم فى دنيا الاحلام ، بجوار بطاريات الخليج ، عندما رايت فى الافق وميضاً احمر يرتفع ويمتد من ناحية ليموناد وسان لويس دى موران . ونسبته انا وجنودى فى بادئ الامر الى حريق طارئ ، ولكن النيران لم تلبث ان اشتدت وضوحا وتضخم الدخان الذى تدفعه الرياح وتكثف بحيث لم اجد بدا من الاسراع الى الحصن للانداز وارسال نجدة . وفيما انا امر باكواخ عبيدنا السود دهشت اذ رايت اضطرابات غريبة تجرى فيها . كان



اغلبهم مستيقظين ويتكلمون فى انفعال كبير ، وكان يدور على السنتهم اسم غريب كانوا ينطقونه فى احترام كبير وهو اسم « بوج جارجال » وسمعت بضع كلمات بدا لى من معناها ان السود فى الشمال ناثرون وانهم يحرقون المساكن والمزارع الكائنة فى الناحية الأخرى من الكاب . وبينما كنت اعبر طريقا موحلا ارتطمت قدمى بكتلة من القنوس مخبوءة بين الاغصان . واستولى على القلق على الفور وامرت جنود المليشيا بحمل السلاح وبمراقبة العبيد . وعاد كل شيء الى الهدوء .

ومع ذلك فقد بدا ان الاضرار تزداد فى كل لحظة وتقرب من ليبييه . بل اننى اعتقد اننى تبينت اصوات المدفعية وتبادل اطلاق النيران فى نحو الساعة الثانية صباحا ولم يستطع عمى وقد ايقظته قبل ذلك ، ان يتمالك هدوءه وامرنى ان اترك فى الاكول عددا من جنود المليشيا تحت قيادة الملازم وان امضى الى الكاب . وبينما كانت محبوبتى المسكنة ماري تنام اطعت عمى ، وكان كما سبق القول عضوا فى مجلس القرية ، وابتعدت مع بقية جنودى .

ولن انسى ابدا منظر المدينة وانا اقترب منها ، فقد كانت النيران تلتهم مساكنها وراحت تمتد بصورة بفيضة ، تسودها سحب من الدخان الذى تطرده الريح فى الشوارع . وتكومت عواصف من الشر من البقايا الصغيرة المشتعلة من أعواد قصب السكر تدفعها الرياح فى عنف ككتل غزيرة من الثلج فوق اسطح المنازل وفوق السفن الراسية فى المرسى مهددة فى كل لحظة مدينة الكاب بحريق مؤسف اكثر اتساعا من الحرائق التى شبت فى ضواحيها .

كان منظرا رهيبا وفظيحا ، فمن ناحية ، الاهالى يعرضون حياتهم لانقاذ السقف الوحيد الذى سيبقى لهم من كل ثرواتهم من الحريق ، ومن ناحية اخرى السفن التى تخشى نفس المصير والتى كان من حظها على الاقل ان الرياح المشبومة كانت تتعد بسرعة نحو بحر مصبوغ بنيران الحرائق الدامية .

تملكنى الذهول وأنا اسمع صوت مدفع الحصن وصياح الهاربين ودوى الانفجارات ، ولم ادر الى اية جهة اوجه جنودى عندما التقيت فى ساحة العرض العسكرية بضابط الفرسان الصفر الذى تولى ارشادنا . ولن اتوقف ايها السادة لكى اصف لكم هول المنظر الذى طالعنا به السهل المحترق فان كثيرين غيرى وصفوا الكوارث التى تعرضت لها مدينة الكاب واود ان امر على هذه الذكريات الاليمة بالدم والنار ، ويكفينى ان اقول لكم ان العبيد المتمردين قد اصبحوا سادة مناطق كثيرة هامة وبعض المزارع الكبيرة فى ليمبيه ، وهذا ما جعلنى اشعر بالقلق بسبب قربها من الاكول .

واسرعت الى مقر المحافظ ، السيد دى بلانشلاند على الفور . كانت الفوضى سائدة والارتباك عاما ، حتى فى راس المحافظ نفسه . واستفسرت عن اوامره وأنا ارجوه ان يفكر فى اسرع وقت فى امان الاكول وسلامتها ، لان الخطر كان يتهددها بصفة عاجلة . وكان المحافظ مجتمعاً بمسيو دى روفراى ، مارشال المدينة واحد كبار الجزيرة الرئيسيين ، وبمسيو دى تروزار ، الكولونيل بفرقة الكاب وبعض اعضاء الجمعيتين المتنافستين ، الاستعمارية والقروية ، وكبار المستعمرين . وفى اللحظة التى قدمت نفسى فيها كان المجتمعون يتداولون فى صخب كبير .

قال احد اعضاء الجمعية القروية : سيدى المحافظ ، لا يجب ان نبعد عن الحقيقة . ان العبيد هم المتمردون وليس الخلاسيين الاحرار . وقد اعلنا ذلك منذ وقت طويل وتوقعناه .

قال احد اعضاء الجمعية الأخرى : ولكنكم اعلنتم ذلك عن غير ايمان . اعلنتموه لكى تظهروا على حسابنا ، وكنتم تستبعدون تماماً أى تمرد حقيقى للعبيد . ان دسائس جمعيتكم هى التى اثارت سنة ١٧٨٦ تلك الثورة السخيفة المزرية التى قام بها ثلاثة آلاف اسود

فى مدينة الكاب والتى لم يقتل فيها غير متطوع واحد ، فضلا  
عن ان زملاءه هم الذين قتلوه .

رد عليه الاول قائلا : اكرر لك اننا نرى الموقف فى وضوح اكثر  
منكم .

— انما انتم الذين الهبتم بمبالاتكم راس هذا المسكين الذى ظهر  
فى المقهى بدون الشارة الوطنية ، وانتم الذين قتلتم الخلاص لاكومب  
لانه قدم عريضة تبدا بهذه الكلمات التى لم يعد احد يستخدمها :  
باسم الرب والروح القدس .

— هذا كذب . انما هى معركة المبادئ والامتيازات .

— طالما فكرت يا سيدى فى انك رجل مستقل .

ولعل المعركة كانت تبلغ الى ابعد من هذا لو لم يتدخل المحافظ  
فيقول :

— ايها السادة ... هل يمكن اكل هذا الجدل ان يدرا الخطر  
عنا لا ارجو ان تنصحونى لا ان تتبادلوا السباب . ها هى التقارير  
التى بلفتنى . لقد بدا العصيان الليلة فى الساعة العاشرة مساء بين  
زنوج مزرعة توربان . وكان على راس العبيد زنجر انجليزى يدعى  
بوكمان ، وقد استمال عبيد المزارع المجاورة فانضموا الى صفوفه  
وحرقوا كل المزارع وذبخوا المستعمرين بقسوة لا مثيل لها .  
وستفهمون هول المصائب حين اقول لكم ان علمهم كان جسد طفل  
معلق فوق رمح .

قاطعت ميسو دى بلانشلاند رعدة سرت بين مستمعيه . ولكنه  
لم يلبث ان استأنف حديثه فقال :

— هذا هو ما يحدث فى الخارج . اما فى الداخل فيسود  
الاضطراب الشديد ، فقد قتل كثير من اهالى الكاب عبيدهم ،  
واحالهم الخوف قساة غلاظ القلوب ، واكثرهم هدوءا او اشجعهم  
اكتفوا بحبس عبيدهم فى اكوأخهم . والبعض يتهم الخلاسين  
الاحرار بهذه الجرائم . وكثير من المولدين اوشكوا ان يروحوا

ضحايا لفضب الشعب . وقد عرضت عليهم الاحتماء بالكنيسة  
التي تحرسها فرقة من الجنود . وهم يطالبوننى الآن بأن اعطيهم  
موقعا واسلحة للدفاع عنه لكي يبرهنوا لى أنهم غير متآمرين مع  
العبيد المتمردين .

صاح صوت لم البث ان عرفت فيه صوت المزارع المشتبه فى  
انه من الخلاسيين والذي تبارزت معه .

— كلا ... لا تفعل يا سيدى المحافظ .. لا تعط الخلاسيين اية  
اسلحة .

سأله احد المستعمرين فى حدة : انت اذن لا تريد ان تقاتل ؟

ولكن بدا ان الآخر لم يسمعه واستطرد يقول : ان الخلاسيين هم  
الد أعدائنا . انهم هم وحدهم الذين يجب ان نخشى بأسهم . واننى  
أوافقك على انه لا يمكن ان نتوقع أى تمرد من ناحيتهم وانمما  
يجب ان نتوقعه من ناحية العبيد ، والعبيد ليسوا بشئ يذكر .

كان المسكين يظن انه يتبرا من الخلاسيين بقوله هذا وانه يقوض  
فى اذهان الذين يصفون اليه الراى العام الذى يضمه الى هذه  
الزمرة المحترقة . وكان فى قوله هذا كثير من الجبن بحيث انه لم  
يكن يمكن ان يفلح . وسرت بين الجميع همسات استنكار جعلته  
يفهم ذلك ، وقال الماريشال دى روفراى ، وهو رجل تقدمت به  
السن .

— كلا ايها السيد .. ان العبيد شئء يجب ان نحسب لهم كل  
حساب ... فهم اربعون مقابل واحد ، ونحن هالكون لا محالة اذا  
لم نجد من يقاوم العبيد والخلاسيين غير البيض من أمثالك .

عض المستعمر على شفته ، وعاد المحافظ يقول : سيدى الجنرال ،  
ما رأيك اذن فى الطلب الذى قدمه الخلاسيون ؟

اجاب مسيو دى روفراى : اعطهم ما يريدون من اسلحة يا سيدى  
المحافظ .. علينا ان نواجه كل الاحتمالات .

وتحول الى المستعمر المشكوك فى امره وساله : اسمع يا سيدى .  
هل ستحمل السلاح ؟

وعندئذ خرج المستعمر المهان وهو يتميز من الغضب .  
ومع ذلك فان اصوات الاضطراب التى تدور فى انحاء المدينة كانت  
تسمع فى كل لحظة وحتى مقر المحافظ . وكانت تعيد الى اذهان  
الرجال المجتمعين الموضوع الذى يشغلهم . واعطى مسيو دى  
بلانشلاند لمساعدته امرا كتبه على عجل بالقلم الرصاص ، وقطع الصمت  
الكثيب الذى اطبق على المكان بأن قال :

— سوف يتسلح الخلاسيون ايها السادة . ولكن ما زالت هناك  
اجراءات اخرى لابد من اتخاذها .

تدخل مستعمر من بين العدد القليل الذى يشترك مع جنود الثورة  
ويدعو نفسه المواطن جنرال كادو وكان معروفا عنه انه سبب بعض  
الاجراءات الدامية وقال :

— اخرى بنا ان نعذب المتمردين لا ان نقاتلهم . ان الامم تريد  
امثلة ، فلندخل الرعب فى قلوب السود . انا الذى اخمدت ثورتى  
يونية ويولية بان نصبت خمسين راسا من العبيد على جانبي الشارع  
الذى اظن فيه . فلينضم كل منكم الى الاقتراح الذى اعرضه عليكم  
الآن . لندافع عن مدينة الكاب بالزنوج المتبقين لدينا .

صاح الجميع فى صوت واحد : وكيف هذا ؟ .. ما هذه الوقاحة !  
عاد المواطن جنرال يقول : انكم لا تفهمون ايها السادة . لننصب  
سياجا من رءوس العبيد يحيط بالمدينة ، ابتداء من حصن بيكوليه  
حتى راس كاراكول . لن يجرؤ المتمردون على الاقتراب عندئذ .  
يجب ان نضحى من اجل القضية العامة فى مثل هذه اللحظة ، واننى  
اول من يسبقكم الى العمل . ان لدى ٥٠٠ عبد لم ينضموا الى  
المتمردين ، واننى اقدمهم لكم .

سرت همسات الفرع ازاء هذا الاقتراح البقيض وتمتم الجميع :  
— هذا فظيع .. هذا امر بشع .

قال احد المستعمرين : ان مثل هذه الاجراءات هى التى اضعفت  
كل شيء . لو اننا لم نتسرع ونعدم متمردي يونيه ويولية واغسطس

لأمكننا ان نمسك بخيط مؤامرتهم الذى قطعه سيف الجلابد .  
لزم المواطن كادو الصمت لحظة لفـرط الفيظ ثم تمت بين  
اسنانه :

- كنت اظن اننى غير مشبوه مع ذلك ، اننى مرتبط بجماعة من  
محبى الزنوج .

ولثالث مرة طلب مسيو دى بلانشلاند ان يمده الحـاضرون  
بنصائحهم :

وقال احدهم :

- اليك راى يا سيدى المحافظ . فلنستقل جميعا الباخرة ليوبار  
الراسية فى الميناء .

وقال آخر : فلنرصد مكافاة لمن ياتينا براس بوكمان .

وقال ثالث : لنطلع محافظ جمايكا على ما يدور .

قال رابع : آه ، نعم . لكى يرسل لنا خمسمائة بندقية كما  
فعل فى المرة السابقة ... سيدى المحافظ ، ارسل اخطارا الى  
فرنسا ولننتظر .

قاطعه مسيو دى روفراى فى حدة : ننتظر .. ننتظر .. والسود ؟  
هل ينتظرون ؟ .. والنيران التى تحيط بالمدينة ؟ .. هل تنتظر ؟ ..  
مسيو دى تولوز ، دق الطبول وخذ المدافع واسحق المتمردين بقنابلك  
وجنودك . وانت يا سيدى المحافظ ، اقم المعسكرات فى كنائس  
الشرق وفى ترودى فالير . اما انا فانى ساتكفل بسهولة حصن  
دوفان وساقود المعارك . ان لى بعض الخبرة فى شئون الدفاع .  
على ان سهول دوفان يكاد يحيط بها البحر والحدود الاسبانية وتبدو  
كشبه جزيرة تحمى نفسها بنفسها .. ونفس الميزة تتميز بها شبه  
جزيرة مول . لنستخدم كل هذا ولنصرف .

نطق القائد الشيخ بكلماته هذه فى حزم وثبات بحيث اسكت كل  
الخلافات . وكان الجنرال على حق فان ادراك كل واحد منهم  
بمصلحته الحقيقية ربط كل الاراء براس مسيو دى روفراى . وبينما



كان المحافظ يثد على يد الضابط الشجاع فى امتنان ويقول له انه  
يقدر قيمة نصائحه على الرغم من انه نطق بها بصيغة الأمر ، ويقطع  
اهمية مساعدته راح كل المستعمرين يطالبون بسرعة تنفيذ الاجراءات  
المذكورة .

وانتهزت هذه اللحظة لى حصل من مسيو دى بلانشلاند على  
الاوامر التى كنت التمسها بفروغ صبر ، وخرجت اخيرا للانضمام  
الى فرقتي والعودة قورا الى الاكل على الرغم من التعب الذى كان  
يحس به الجميع فيما عداى .

## - ١٧ -

كان النهار قد بدا يطلع حين بلغت ساحة العرض العسكرية  
وايقظت الجنود الذين رقدوا فى غير نظام فوق معساطفهم ، مع  
الهاربين من السهول ، والبهائم التى راحت تثغو وتخور ، ومختلف  
الامتعة التى احضرها الهاربون معهم . وكنت قد عثرت على فرقتي  
الصغيرة بين الجموع عندما رايت فارسا اصفر يتصبب عرقا ويفطيه  
القباز يسرع الى فمضيت للقاءه وعرفت من الكلمات القلائل التى  
اقلت من بين شففيه فى جزع ان مخاوفى قد تحققت وان الثورة قد  
امتدت الى سهول الاكل وان السود يحاصرون حصن جاليفيه الذى  
احتمى فيه جنود المليشيا والمستعمرون . ويجب ان اقول لكم ان  
حصن جاليفيه لم يكن حصنا بمعنى الكلمة ، وانهم كانوا يطلقون هذا  
الاسم على اى معسكر يقع خلف التلال .

لم يكن بمقدورى ان افقد لحظة واحدة اذن ، ولهذا جمعت  
ما استطعت من جياد وبعض جنودى وبلغت املاك عمى فى نحو الساعة  
العاشرة تحت ارشاد الفارس الاصفر .

واقبت نظرة عابرة الى هذه المزارع الشاسعة التى لم تكن فى  
هذه اللحظة غير بحر من النيران ، تنتشر فيها امواج كبيرة من الدخان

كانت الريح تدفع اليها من وقت لآخر ، كشرارات ، جذوع اشجار كبيرة مشتعلة . وبدا كأن فرقة كبيرة تمتزج بل انهيارات ودوى ترد على ولولة السود البعيدة التى كنا نسمعها قبل أن نراهم .

ولم تكن لدى انا غير فكرة واحدة لم يستطع ان يبعدنى عنها اختفاء تلك الثروات التى كانت مقدرة لى ، وهذه الفكرة هى سلامة مارى ، فما كان ليهمنى اى شىء لو أن زوجتى ماتت . وكنت اعرف انها موجودة فى الحصن ، ولم اطلب من الله الا ان اصل فى الوقت المناسب . كان هذا الأمل وحده يشد أزرى فى اضطرابى ويمدنى بشجاعة وقوة اسد .

وبلقنا اخيرا منحى للطريق استطعنا ان نرى منه حصن جاليفيه . كان العلم الثلاثى الالوان لا يزال يرفرف على سطحه ، ونار متاجعة تحيط بجدرانته . واطلقت صيحة فرح وصحت بزملائى :

— اسرعوا .. اسرعوا ...

وضاعفت من سرعتى ومضينا خلال الحقول نحو الحصن الذى راينا فى اسفله بيت عمى . كانت ابوابه ونوافذه محطمة . ولكنه كان لا يزال قائما يتوهج بانعكاسات الحريق الذى لم يصل اليه لأن الريح كانت تأتى من البحر ولانه كان فى مكان منعزل عن المزارع .

وكان هناك زوج كثير من مختبئون فى هذا البيت بدوا فى نفس الوقت فى النوافذ وعلى السطوح . وكانت المشاعل والحرايب والقنوس تلمع وسط حلقات البنادق التى كانوا لا يكفون عن اطلاقها على الحصن بينما كان عدد كبير آخر من زملائهم يصعد ويقع ويعود فينهض من جديد دون انقطاع حول الجدران المحاصرة التى نصبوا السلام بجوارها .

هذا الجمع من السود الذين يصدهم الجنود ويعودون فيهمجون من جديد كانوا من بعيد اشبه بخلية من النمل تحاول اختراق قشرة سلحفاة كبيرة ويحاول هذا الحيوان البطيء التخلص منها من وقت لآخر بهزة منه .

Looloo

www.dvd4arab.com

وبلغنا أخيرا الخنادق الاولى التى تحيط بالحصن .

ورحت ، وعيناي لا تفارقان العلم الذى يرفرف فوق سطح الحصن  
أشجع جنودى وأستحثهم باسم عائلاتهم المحصورة بين جدرانهم كعائلتى  
أنا والتى نسعى لنجدتهم . وردوا على فى صيحة واحدة واصطفوا  
فى صف واحد وهممت بأن أصدر اليهم امرى بالهجوم ، ولكن  
ارتفعت من داخل الحصن فى هذه اللحظة بالذات صيحة هائلة أعقبها  
اعصار من الدخان أحاط بالحصن كله ولف جدرانهم بعض الوقت .  
وسمعنا صخباً أشبه بذلك الذى يصدر عن اتون مستعر، وما انقشعت  
حتى رأيت حصن جاليفيه يرفرف عليه علم احمر ... علم المتمردين  
المنتصرين .

وهكذا انتهى كل شيء .

## - ١٨ -

والآن اسمحوا لى ايها السادة ان امر مر الكرام على المشاعر  
التى عانيتهما امام هذا المنظر الرهيب . غير اننى اعترف لكم دون  
خجل اننى لم اعبأ لحظة واحدة بالحصن الذى سقط ولا بالجنود الذين  
قتلوا ولا بالعشرين أسرة التى ذبحت ، فقد ضاعت ماري منى الى الابد،  
بعد ساعات قلائل من زفافي اليها ، وانا السبب لاننى لو لم اتركها  
فى الليلة السابقة لكى اسرع الى الكاب انصياعا لأمر عمى لاستطعت  
ان انقذها على الاقل او ان اموت بجوارها ومعها فلا افقدها . هذه  
الافكار الكثيرة سببت حزنى حتى أوشكت ان اجن ، وكان بأسى  
ندما وتحسرا .

ومع ذلك ، فقد بلغ الغضب بزملائى الى حد انهم صاحوا ينادون  
بالانتقام : واسرعنا ، وسيوفنا فى اسناننا ومسدساتنا فى ايدينا  
وسط المتمردين . وعلى الرغم من انهم كانوا أكثر عددا فقد قفروا  
امامنا . ولكننا كنا نراهم فى وضوح : على يميننا ويسارنا وامامنا

وخلفنا يذبحون البيض ويبادرون بحرق الحصن . وازداد غضبنا  
ازاء جبنهم .

وعند احد الابواب الخلفية للحصن تقدم ثاديه الى وهو مشخن  
بالجراح وقال :

- سيدى النقيب ، ان صاحبك بيرو ساحر او « اوبى » كما  
يقول هؤلاء الزوج الملعين ، او هو شيطان على الاقل . كنا  
نقاوم مستبسلين . وكنت انت قادما ، وكنا على قاب قوسين من  
النصر عندما دخل الحصن من حيث لا ادرى ، اما عن عمك واسرته  
وزوجتك ...

قاطعته متسائلا : مارى ... اين مارى ؟

وفى هذه اللحظة خرج زنجى اسود عملاق من خلف حفرة  
محترقة حاملا معه امرأة شابة تصيح وتقاومه . كانت المرأة الشابة  
مارى وكان الاسود بيرو .

صحت : ايها الخائن ...

وصوبت مسدسى نحوه ، ولكن ارتمى احد العبيد الثائرين امامه  
وخر ميتا ، والتفت بيرو ، وبدا كما لو كان يوجه الى بضع كلمات  
ثم توغل وسط اعواد قصب السكر حاملا فريسته معه . وبعد  
لحظة تبعه كلب ضخيم يحمل بين اسنانه مهدها يرقد فيه آخر وليد  
لعمى . وعرفت الكلب على الفور ، كان راسك ، واستبد بى الفضب  
وافرغت مسدسى فى الكلب ولكننى لم اصبه .

ورحت اعدو كالمجنون مقتفيا اثره ، ولكن ما مر بى من تعب  
وارهاق اثناء الليل ، والجهد الذى بذلته فى الساعات الاخيرة دون  
ان انال اى قسط من الراحة ومخاوفى من اجل مارى .. وانتقالى  
الفجائى من منتهى السعادة الى آخر مرحلة من مراحل الشقاء ،  
كل هذه الانفعالات انهكتنى اكثر مما انهكتنى التعب الجسمانى فلم  
امش بضع خطوات حتى تهاويت وغشيت عيني سحابة وأغمى على .

Looloo

www.dvd4arab.com

عندما استيقظت الفيت نفسى فى بيت عمى الذى اصابه الدمار ،  
وبين ذراعى ثاديه .. وكان ثاديه الوفى يتأملنى فى قلق شديد .  
وصاح بمجرد ان احس بنبضى يتحرك تحت يديه : النصر ! ..  
النصر ! .. انهزم الزنوج وعاد النقيب الى الحياة .  
قاطعت صيحة الفرح التى اطلقها بسؤالى الخالد : اين مارى ؟

لم اكن قد جمعت شتات افكارى بعد ، ولم احتفظ بذكرى  
مصابى ، وانما باحساسى به . واطرق ثاديه براسه ، وعشدد  
عادت الى ذاكرتى كلها ، وعشت فى لحظة وجيزة كل ما مر بى فى  
هذه الليلة الرهيبة ، ورايت الزنجى العملاق يحمل مارى بين  
ذراعيه خلال الحريق كرويا شيطانية ، والضوء البشع الذى دوى  
فى المستعمرة وظهر كل البيض اعداء لعبيدهم جعلنى ارى فى  
بيرو ، هذا الرجل الطيب والكريم والوفى الذى يدين لى بحياته  
ثلاث مرات جاحدا ووحشا وغريما .. واكد لى اختطافه لزوجتى  
فى نفس يوم زفافنا شهبانى الاولى ، وعرفت اخيرا ، وفى وضوح  
تام ان مفتى الاستراحة لم يكن غير مختطف مارى الحقيق ...  
ما اكثر ما حدث من تغييرات فى هذه الساعات القلائل .

قال لى ثاديه انه تعقب بيرو وكلبه دون جدوى ، وان الزنوج  
انسحبوا على الرغم من ان عددهم كان يفوق جنودنا بكثير ، وانه  
كان فى مقدورهم التغلب علينا بكل سهولة ، وان حرق املاك اسرتى  
مستمر دون ان يستطيع احد ايقافه .

وسألته ان كان يعرف ما حدث لعمى ، وكان قد نقلنى الى غرفته  
بالدات فاخذ يندى فى صمت وقادنى نحو المخدع وازاح الستائر .

كان عمى المسكين ممدا فى فراشه ، يقوص فى قلبه خنجر حتى  
مقبضه ، وكان الهدوء البادى على وجهه يدل على انه تلقى الطعنة  
وهو نائم . وكان فراش القزم « هايبراه » وكان يرقد عادة عند

قدميه ، ملوثا هو الآخر ، والدم يصبغ السترة المزخرفة التي يرتديها المجنون المسكين . وكانت ملقاة على الارض بجوار الفراش .

ولم اشك فى ان المهرج مات ضحية اخلاصه لعمى ، وان زملاءه ربها قتلوه وهو يدافع عن سيده .

ولمت نفسى لشبهاتى السابقة التى جعلتنى احكم حكما خاطئا على هابيبراه وعلى بيرو . وامتزجت دموى التى ذرقتها على نهاية عمى العاجلة ببضع حشرات على مجنونه . وامرت بان يبحثوا عن جثته ، ولكن ابحاثنا راحت عبثا ، واعتقدت ان الزوج اخذوا القزم والقوا به فى النيران . وفى الجنازة التى اقيمت لعمى امرت ان تتلى الصلاة على روح هابيبراه المخلص .

## - ٢٠ -

وقع حصن جاليفيه ودمر ، واختفت املاكنا ، ولم تعد هناك جدوى من اطالة المقام فى هذه الاطلال ، فعدنا الى مدينة الكاب فى نفس المساء .

ووقعت فريسة مرض شديد ، وانا ابتنى الحمى ، فان الجهد الذى بذلته لكى اتقلب على راسى كان من العنت بحيث توترت الطاقة وانقطعت ورحلت اهذى .. آمالى المخدوعة وصديقى الفادر وضياع مستقبلى والغيرة الشديدة .. كل ذلك افقدنى الرشد والصواب . خيل لى ان النيران تسرى فى عروقى وان راسى توشك ان تنفجر . كان قلبى يتمزق غضبا وحنقا .. تصورت مارى فى قبضة عبد اسود اصبح سيدها ، واعنى به بيرو . وقد قيل لى اننى كنت اندفع من فراشى وانه كان لابد لى من ستة رجال للحيلولة بينى وبين ان احطم راسى فى الجدران .

ومرت هذه الازمة بفضل الاطباء وعناية ثاديه . ولا ادري اية



قوة تدفع الشباب الى التمسك بالحياة .. كل ذلك تغلب على الداء  
وشفيت بعد عشرة ايام ، ولم اشعر باى حزن او اسى لبقائى على  
قيد الحياة رغبة منى فى الانتقام .

وما ان شفيت حتى اسرعت الى مسيو دى بلانسلاند انشد عملا ،  
وقد اراد ان يعهد الى بمركز للدفاع عنه ولكننى توسلت اليه ان  
يبعث بى كمتطوع الى احدى الفرق المتحركة التى يرسلها من وقت  
لاخر لمحاربة السود .

وكان الجنود قد اسرعوا بتحسين الحصن ، وكانت الثورة تتقدم  
تقدما فظيعا ، وبدا زئوج بورتو برنس يثورون . وكان بياسو يقود  
زئوج ليحيه والاكول ، اما جان فرانسوا فقد نادى بنفسه قائدا عاما  
لثوار سهول ماريارو ، اما بوكمان ، الذى اشتهر بعد ذلك بنهايته  
المفجعة فكان يطوف بزملائه من الاشرار بشواطىء ليموناد فى حين  
اقامت عصابات مورن روج عليها زعيما اسود يدعى بوج جارجال .

وقد تعارضت اخلاق وطباع هذا الاخير مع وحشية الآخرين  
تعارضاً غريباً ، اذا صدقنا ما اشيع عنه . فبينما كان بياسو  
وبوكمان يتفنان فى اختراع شتى الوان الموت والتعذيب للاسرى  
الذين يقعون بين ايديهم ، كان بوج جارجال يبادر ويقدم لهم كل  
الوسائل التى تتيح لهم مفاداة الجزيرة . وكان الاولان يعقدان  
الصفقات مع البواخر الاسبانية التى تختلف الى السواحل ويبيعان  
لها مسبقا الاسلاب والغنائم التى يضمناها من المساكين والتعساء  
الذى يضطرون الى الفرار . اما بوج جارجال فقد اغرق الكثير  
من هؤلاء القراصنة ، وقد اخلى سبيل مسيو كولادى مينيه وثمانية  
من المستعمرين المعروفين كان بوكمان قد امر بربطهم الى عجلة  
القيادة باحدى هذه السفن ، وراح الجميع يروون عن ذلك الزعيم  
آلاف القصص التى تدل على كرمه والتى لا يسمح المقصم  
بذكرها .

وبدا لى ان رغبتى فى الانتقام ليس من السهل تحقيقها ، فالتفت

Looloo

www.dvd4arab.com

لم اسمع احدا يتكلم عن بيرو . واستمر الثوار الذين يتزعمهم  
بياسو يثيرون قلق مدينة الكاب ، بل انهم اجتروا على الاقتراب  
من التل الذي يشرف على المدينة ولقى مدفع القلعة مشقة كبيرة  
فى ابعادهم . وعقد المحافظ العزم على ان يردهم داخل الجزيرة ،  
وانضم جنود المليشيا بجنود مدن الاكول وليجيه ودانامينت وماربارو  
الى فرقة الكاب والفرق الصفراء الرهيبة والفرق الحمراء وتكون  
منهم جميعا جيشنا الفعال . اما جنود المليشيا بمدن دوندون  
وكارتييه ودشان فقد انضمت اليهم فرقة من المتطوعين بقيادة  
التاجر بونسنينون وعسكروا فى مدينة الكاب للدفاع عنها .

وقد اراد المحافظ ان يتخلص اولاً من بوج جارجال الذى بدت  
هجماته تثير قلقه فارسل اليه مليشيا الوانا مينيت وفرقة من  
الكاب . وعاد هؤلاء الجنود بعد يومين مدحورين تماماً . واصر  
المحافظ على رغبته فى قهر بوج جارجال فارسل اليه نفس الفرقة  
بعد ان دعمها بخمسين من الفرسان الصفر واربعمئة من جنود  
المليشيا . وعاد هذا الجيش الثانى وهو فى حالة اسوأ من  
سابقه ، وكان ناديه ضمن هذه البعثة الثانية ، وقد اصابته خيبة  
أمل كبيرة واقسم لى عند عودته انه سوف ينتقم من هذا البوج  
جارجال .

واغرورقت عيننا دوفرنى بالدموع وعقد ذراعيه فوق صدره وبدأ  
كانه غرق فى حلم كثيب لبضع دقائق ثم عاد واستأنف قصته .

- ٢١ -

جاء النبا بان بوج جارجال غادر المورن روج واتجه برجاله عبر  
الجبال لى ينضم الى جيش بياسو ، وكان المحافظ يرقص طرباً  
وقال وهو يدعك يديه : لقد وقعوا فى ايدينا .

وفى صباح اليوم التالى ، كان الجيش الاستعماري على بعد

فرسخ واحد من مدينة السكاب . وهجر الثوار ، وهم يرونا  
نتقدم ، بورت مارجو وحسن جاليفيه مسرعين ، وكانوا قد اقاموا  
فى الحصن مركزا للدفاع عنه قوامه قطع ضخمة من المدفعية غنموها  
من فرق الساحل ، وارتدت كل العصابات نحو الجبال ، وكان  
المحافظ منتصرا . واستأنفنا تقدمنا وكل منا ، وهو يمر بهذه  
السهول القاحلة المقفرة ، يحاول أن يحيى بنظرة اخيرة حزينه المكان  
الذى كانت فيه مزارعه واملاكه . وكان لا يستطيع فى اغلب الاحيان  
معرفة المكان .

وكان تعترضنا من وقت لآخر جمرات تاتى من الحقول المزروعة  
وتهبط فى الغابات والمغازات ، ففى مثل هذا الطقس حيث الارض  
ما زالت عذراء والنباتات وفيرة تصاحب الحرائق ظواهر غريبة ،  
ويسمعها المرء من بعيد ، واحيانا قبل أن يراها فهى تصدر صوتا  
اشبه بهدير الشلالات . وكذلك جذوع الاشجار التى تنهار والافغان  
التي تفرقع والجذور التى تطلق فى الارض والاعشاب الكبيرة  
التي تحترق وهدير البحيرات وصفير اللهب الذى يلتهم كل  
ما امامه ، يصدر عن كل ذلك صخبا لا يلبث أن يهدأ ثم يزداد حدة  
مع انتشار الحريق ، وترى احيانا حافة من الاشجار الخضراء لم  
تمتد اليها النار بعد ثم اذا بها شعلة متأججة ، واذا بها تبدو كثعبان  
احمر يتلوى ويتلوى ثم يرتفع ويهبط ولا تلبث النيران ان تخبو  
وتنقشع عن سحابة من الدخان ترتفع وتمطر رمادا احمر فوق  
الارض .

- ٢٢ -

وفى مساء اليوم الثالث بلغنا عنق جراند ريفير ( النهر الكبير )  
وخيل لنا ان الزوج اصبحوا على بعد عشرين فرسخا منا ، فى  
الجبل .

واقمنا معسكرنا فوق قمة تل صغير ، وبدا لنا انهم استخدموا  
المكان لنفس الغرض لانه كان قد تجرد من الاشجار والنباتات .  
وكان المكان لا يدعو الى الارتياح، ولكن والحق يقال، كنا نشعر بالهدوء.  
فقد كانت تحيط بالتل من جميع النواحي صخور عمودية حولها  
غابات كثيفة ، والنهر يجري خلف المعسكر ويضيق بين صفيه في  
هذه الناحية ، وتنمو على الضفتين نباتات متعرشة تكاد تخفى النهر  
عن الانظار ، بحيث ان العين التي تتأمل هذه الصخور من عل يخيّل  
لها انها ترى مزارع ندية ولا يدل على وجود النهر في هذا المكان  
غير خربير المياه .

ولم تلبث الشمس ان اختفت وراح الليل بسيط ذبوله على  
المعسكر ، ولم يعد يبدد الصمت غير صيحات الطيور وخطوات  
الحراس الرتيبة .

وسمعنا فجأة فوق رؤوسنا غناء الزوج الخفيف ، واضطربت  
الاشجار التي تحيط بالصخور بالنيران ، وراينا على ضوئها عصابات  
كثيرة العدد من الزوج والخلاسيين ، عرفنا فيهم زوج بياسو .

كان الخطر عاجلا ، واستيقظ الزعماء مذعورين واسرعوا يجمعون  
جنودهم . فرغت الطبول ونفخ في البوق ، وتجمعت صفوفنا  
في ارتباك ، وبدلا من ان ينتهز الثوار فرصة ارتباكنا وقفوا جامدين  
ينظرون الينا ويغنون .

واذا بعبد عملاق يقف وحده على قمة اعلى صخرة من الصخور  
الثانوية التي تحيط بالنهر الكبير ، ترفرف على جبينه ريشة بلون  
النار ، وفي يده اليمنى بلطة وفي يده اليسرى علم احمر . وعرفنا  
في هذا العملاق بييرو . ولو انني وجدت في هذه اللحظة بندقية  
تحت يدي فلعل الفضب كان يحملني على ارتكاب عمل يدل على  
الخسة والجبن . وكرر الاسود اغنيته المخيفة وبرز علمه في الصخرة  
ورمى ببطلته فوق رؤوسنا حيث هبطت في النهر . واحسست  
بالاسف عندئذ لانني ادركت انه لن يموت بيدي .

وبدا السود عندئذ يلقون علينا سسيلا من الصخور . وراح الرصاص والسهم يتساقط حولنا فى النهر ، واحتدم جنودنا غيظا لعدم تمكنهم من النيل من مهاجميهم ، وماتوا وهم فريسة اليأس ، بعضهم طحتهم الصخور والبعض نال منهم الرصاص والسهم . وسادت الفوضى بين صفوف الجيش . وفجأة ارتفعت ضجة هائلة من وسط النهر . كان يدور فيه منظر غريب ، فان الفرسان الصفر ، وقد لحقتهم أسوا معاملة من جموع الثوار ، خطر لهم ان يفلتوا منهم باللجوء الى النباتات المتعرشة النامية على ضفة النهر . وكان ثاديه هو اول من خطرت له هذه الفكرة ، وهى فكرة رائعة .

وهنا أمسك الراوى عن الكلام .

- ٢٣ -

كان ثاديه قد تسلل الى الخيمة منذ ربع ساعة وذراعه معلق الى صدره دون ان يراه احد ووقف فى ركن منها . ودلت حركاته فقط على مدى اهتمامه بقصة النقيب ، وفى هذه اللحظة بالذات خيل له ان الاحترام لا يسمح له بأن يترك مثل هذا الشئ المباشر يمر دون ان يشعر دوفرنى فتمتم يقول فى ارتباك :

- انت رجل كريم جدا يا سيدى .

ارتفعت قهقهة عامة وتحول دوفرنى اليه وصاح يقول فى لهجة قاسية : كيف هذا ؟ .. انت هنا يا ثاديه ؟ .. وذراعاك ؟

وكانت هذه اللهجة جديدة بالنسبة للجندى الشيخ فتجهمت أساريه وتمايل فى وقفته ، وطوح براسه الى الخلف لى يوقف الدموع التى تترقت فى عينيه وقال فى صوت خافت :

- لم اكن اتوقع ان تخاطبنى بهذا الجفاء كما لو اننى رجل غريب يا سيدى .

هب النقيب واقفا على الفور وقال : عفوا يا صديقي العزيز ،  
عفوا . لا ادري ماذا قلت ، فهل تصفح عني ؟

اغرورقت عينا الرقيب بالدموع رغما عنه وقال : هذه ثالث مرة  
ابكى فيها ، ولكنني ابكى الآن فرحا .

وانبسطت اسارير الجميع ، وساد صمت قصير قطعه النقيب  
بان ساله اخيرا :

- ولكن قل لي لماذا غادرت غرفة الاسعافات واتيت الى هنا ؟

- ذلك لانني اردت ان اسالك اذا كنت تحب ان اضع السرج  
الموشى من اجل معركة الفد .

ضحك هنرى وقال : كان الاجدر بك ياثاديه ان تسال الطبيب  
الجراح اذا كان يجب ان تلف يدك فى بعض النسالة ( خيوط كانت  
تستعمل قديما فى تضميد الجروح ) .

وقال باسكال : او ان تساله اذا كان فى مقدورك ان تحتسى  
قليلا من النبيذ لانهاش قواك .. ومهما يكن فاليك بكأس من الخمر  
لا يمكن الا ان تصيبك بالخير .

تقدم ثاديه ، وحيث تحية الاحترام واعتذر للقوم لاضطراره لاخلد  
الكأس بيده اليسرى وافرغها فى جوفه فى صحة الجميع . واضطرم  
وجهه وقال :

- بلفت من قصتك يا سيدى النقيب تلك اللحظة حيث كنت ..  
نعم ، انا الذى اقترحت عليهم اللجوء الى تلك النباتات المتعرشة  
لكى تنجو من الموت تحت الاحجار . ولكن قائدنا كان لا يعرف العوم  
فخشى ان تغرق ، وهذا امر طبيعى فاخذ يعارضنى بكل قواه الى  
ان راي حجرا ضخما اوشك ان يحطمه يقع فى النهر ولا يفوص فيه  
بسبب الاعشاب فقال عندئذ : اولى بنا ان نموت كما مات فرعون  
مصر . ولكنه طلب منى ان اكون اول المتقدمين فمضيت وهبطت الى  
الضفة ووثبت الى النهر وانا اتشبث بأعلى الاغصان . ولكنني لم  
البت ان احسست بان هناك من يشدنى من ساقى فقاومت . ولحق



بى جميع الفرسان وهم يصيحون كالشياطين . كان زنوج مورن روج  
مختبئين بين الاعشاب متربصين لى يفاجئونا فى اللحظة المناسبة  
واختلط الحابل بالنابل ودار عراك مستميت . وكانوا عراة الاجسام  
واخف منا حركة ، ولكن ضرباتنا كانت اشد من ضرباتهم ، واخذنا  
نسبح بذراع ونقاتل بالاخري ، كما يحدث عادة فى مثل هذه  
الظروف . اما الذين يجهلون السباحة فكانوا يتعلقون بالاعشاب  
وكان الزنوج يجذبونهم من ارجلهم . وبينما المعركة فى اشدّها  
رايت عبدا ضخما يقاتل كالشيطان ويقاوم ثمانية او عشرة من  
زملائى . واسرعت اليهم ، وعرفت فى العبد بيرو . وكنا قد  
اختلفنا منذ ان سقط الحصن اطبقت بيدي على عنقه وهم بان  
يتخلص منى بطعنة من خنجره عندما رأتى قاستسلم لى بدلا من ان  
يقتلنى ، وهذا لسوء الحظ لانه لو لم يستسلم لى . . ولكننا  
سنعرف هذا قيما بعد . . ولما رأى الزنوج اننى اسرته هجموا  
على ليخلصوا منى . وهجم جنود المليشيا فى نفس الوقت . واذا  
راى بيرو ان زنوجه هالكين لا محالة نطق ببضع كلمات لم افهمها  
وكان لها وقع السحر لان الزنوج بادروا بالفرار واختفوا فى لمح  
الانصر . وكان من الممكن ان تكون هذه المعركة النهرية رائعة لو لم  
افقد فيها اصبعي ، ولكن كان هذا مكتوبا فى لوح القدر يا سيدى  
التقيب .

وقال دوفرنى : هذا صحيح يا عزيزى ثاديه . كانت هذه الليلة  
مشحونة حقا .

واوشك ان تستفرقه احدى هذه الاحلام العميقة التى اعتاد عليها  
لو لم يحثه القوم على اتمام قصته . واستطرد يقول عندئذ :

- ٢٤ -

بينما كانت المعركة التى ذكرها ثاديه تدور فوق التل كنت قد  
استطعت ، مع بعض رجالى ، تسلق صخرة كبيرة مسطحة تشرف على

Looloo

www.dvd4arab.com

المواقع التي يحتلها المتمردون ، وما أن مهدنا الطريق حتى تبعنا جنود الميشيا ، ورحنا نطلق النيران ، وكانت أسلحتنا تفوق أسلحة الزنوج بكثير فلم يستطيعوا الرد عليها بعنف ، وسرعان ما وهنت عزيمتهم ، واستبسلنا في القتال ، ولم تلبث الصخور أن اخلبت من أعدائنا الذين حرصوا قبل ذلك على القاء جثث قتلاهم على بقية الجيش الذي لا يزال يقاتل فوق التل ، فأسرعنا الى الاشجار الضخمة وقطعنا بعضا منها وربطناها بعضها ببعض وصنعنا منها زورقا يكفي لمائة منا . وبواسطة هذا الزورق المرتجل مررنا بالصخور المهجورة ، وبهذا وجد جزء من الجيش نفسه في موقف أحسن . وزعزع هذا المنظر من قوة المتمردين ، وضاعفنا من اطلاق النار ، وعلا صياح الثوار ، وكان يدل على اليأس ، وتخلله اسم بوج جارجال ، وساد الدعر بين صفوفهم ، ورأينا كثيرين منهم يقفون مذهولين فوق الصخرة التي يرفرف عليها العلم الاحمر ويرفعون العلم ويسرعون الى ناحية النهر ، ودلنا ذلك على ان زعيمهم اما ان يكون قد مات او اخذ اسيرا .

وتزايدت جراتنا ، وعزمت على أن اطرد بالسلاح الابيض الثوار من الصخور التي ما زالوا يحتلونها ، والقيت جسرا من احد جذوع الاشجار بين صخرتنا والصخرة المجاورة واندفعت وسط الزنوج ، وهم جنودى أن يلحقوا بى ، ولكن احد جنود الثوار هوى ببلطته على جذع الشجرة فشطره نصفين وسقط في النهر فى دوى شديد .

والتفت خلفى ، وفي هذه اللحظة احسست بستة او سبعة من الزنوج يجردوننى من سلاحى . وقاومتهم كالاسد ، ولكنهم اوثقونى بالحبال غير عابئين بالرصاص الذى يتساقط عليهم من رجالى .

ولم أشعر بالعزاء الا وانا اسمع ضيحات النصر تدوى حولى بعد لحظات . ولم البث ان رايت السود والخلاسيين يتسلقون الصخور المنحدرة مرتبكين وهم يصيحون يا ناسيين . وتبعهم اولئك

الذين اسرونى ، وقد حملنى اقواهم فوق كتفيه ومضى بى نحو  
القابات وهو يثب من صخرة الى اخرى فى خفة الوعل .  
ولم يلبث ضوء النيران ان اختفى ، ولكن صاحبى اكتفى بنور القمر  
وراح يمشى وقد خفف من سرعته .

- ٢٥ -

بعد ان اجتزنا غابة من الشجيرات الصغيرة وعبرنا جداول كثيرة  
وصلنا الى واد وحشى لم اعرفه من قبل ، يقع فى قلب الاكول  
يعرفونه فى سانتو دومينجو باسم « الجبال المزدوجة » وهو سهل  
خصب اخضر محصور بين جدران من الصخور العارية تثبت فيه  
اشجار الصنوبر والشخيل ، برده قارس يزداد رطوبة فى الليل .  
وكان الفجر قد بدا يبرز فضاء بنوره القمم العالية المحيطة ، اما  
الوادى نفسه فكان لا يزال غارقا فى ظلام دامس ، لا يبدد ظلمته  
غير النيران العديدة التى يشعلها الزنوج . وكان ذلك السهل نقطة  
لتجمعهم غير المنظم ، وكان السود والخلاسيون يأتون من وقت لآخر  
فى فرق مفزوعة مدعورة وهم يطلقون صيحات الياس والفضب .  
وكانت النيران التى تومض كعيون النمر فى السهل المظلم تدل على  
ان المعسكر يزداد اتساعا فى كل لحظة .

والقانى الاسود الذى اسرنى عند جذع شجرة من البلوط ، وكنت  
ارى من مكانى هذا المنظر دون اية مبالاة . وربطنى من وسطى  
بالشجرة واحكم وثاقى بحيث لم استطع حراكا ووضع فوق راسى  
طاقيته الحمراء ، ولا ريب انه اراد ان يشير بها الى اننى ملكه .  
وبعد ان تاكد اننى لن استطيع الهرب ، وان احدا غيره لن يستطيع  
ان ياخذنى ، وهم بان يبتعد استقرت نيتى على ان اخاطبه عندئذ  
فسالته باللهجة الاقليمية هل هو من جماعة دوندون او جماعة  
المورن روج فتوقف واجابنى فى كبرياء « مورن روج » . وخطرت

ببالي فكرة ، فقد سمعت عن كرم زعيم هذه الجماعة ، بوج جارجال ، وعلى الرغم من اننى كنت قد وطلدت العزم على ان فى الموت نهاية لمصائبى فان فكرة التعذيب على يدى بياسو كانت تومى الى برعب شديد . لم اكن ابغى شيئا غير الموت ولكن من غير تعذيب او تنكيل ، ولعل ذلك ضعفا ، غير اننى اظن ان طبيعة الرجل تتمرد دائما فى مثل هذه الحالات . ورايت اذن اننى اذا استطعت ان انجو من بياسو فقد احصل من بوج جارجال على ميتة بعيدة عن التعذيب . . ميتة جندى . وطلبت من ذلك العبد ان يمضى الى حيث بوج جارجال فاجفل وصاح بى وهو يضرب جبينه بيده « بوج جارجال » ، ثم صاح فى غضب وهو يلوح لى بقبضته « بياسو . . بياسو » وبعد ان نطق بهذا الاسم المخيف تركنى ومضى .

اثار غضب الزوجى والمه ذكرى تلك اللحظة من المعركة التى استنتجنا منها وقوع بوج جارجال فى الاسر او موته ، ولم اعد اشك فى ذلك واستسلمت لمصرى ولانتقام بياسو ولشروه وتعذيبه .

## - ٢٦ -

هذا والوادي لا يزال سادرا فى الظلام وجموع السود ما زالت تتوافد والنيران تزداد اتقادا وتاججا . وجاءت جماعة من الزنجيات واشعلن نارا على مقربة منى ، تلمع فى سواعدهن وسيقانهن اساور من الزجاج الاحمر والازرق والبنفسجى وفى آذانهن اقراط وفى كل اصبع من اصابع ايديهن وارجلهن خواتم ويعلقن فى اعناقهن احجية وعقودا تتدلى على صدورهن وفوق خصورهن مراول مزينة بالريش عرفت من نظراتهن الفامضة الزائفة ، وصياحن المتزن انهم من الساحرات . ولملكم تذكرون انه يوجد بين سود افريقيا فوج موهوبون بموهبة الشعر والارتجال الى حد يشبه الجنون . وهؤلاء

الزئوج يتنقلون من بلد الى آخر وهم اشته بهؤلاء الرواة الذين كانوا ينشدون الملاحم والاساطير فى العصور القديمة او الشعراء الفنانيين الذين اشتهرت بهم فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وهذا النوع من الزئوج يعرف باسم السحرة ، وزوجاتهم الساحرات قد مسهن الشيطان هن الاخرىات ويصاحبن أزواجهن فى رقصهم وغنائهم . كان بعض من هؤلاء النسوة اذن هن اللاتى التفغن على بعد خطوات منى وقد ثنين سيوفهن على الطريقة الافريقية حول نار كبيرة اشعلنها من اوراق الشجر الجافة وراحت تعكس على وجوههن ضوءها الاحمر .

وما ان اكملت دائرتهن حتى اخذت كل منهن بيد الاخرى ، وراحت اكبرهن سنا ، وكانت قد شبكت فى شعرها ريشة من جناح الطائر المعروف بمالك الحزين ، وصاحت تقول « أووانجا » وعرفت انهن سيمارسن نوعا من السحر معروفا بهذا الاسم ورددت الاخرىات صيحتها « أووانجا » وبعد صمت قصير انتزعت زعيمتهن خفنة من شعرها والقت بها فى النار وهى تقول « ساذهب الى الشيطان » .

واقطدت الساحرات بزعيمتهن والقين فى النار بحفنة من شعورهن وهن يكررن قولها . واثارنى هذا الابتهاال القريب وما صاحبه من تكثيرات مضحكة ، ولم اشعر الا وانا اضحك رغما عنى .

واضطربت الزنجيات ونهضن وهن مدعورات ، ولم يكن قد لاحظن وجودى حتى هذه اللحظة ، واسرعن نحوى صاحبات وهن يصحن :  
- الابيض .. الابيض .

ولم يسبق لى ان رايت قبل ذلك اليوم وجوها مخيفة كما رايت تلك الوجوه الفاضبة السوداء باسنانها البيضاء وعيونها البيضاء بعروقها الكبيرة الدامية .

وتطارت عيونهن شرا ، ورايت انهن ينشدن تمزيقى ولكن زعيمتهن صاحت بهن : النظام .. النظام .. فتوقفن فجأة ورايتهن

يخلصن مراولهن ويلقينها أرضا ويبدان حولي رقصة كان المعروف  
ان تثير ذعري ويرشقنني بنظرات شذراء وهن ينشدن أغنيات يشوبها  
رنة من الشؤم تناقض مايدو عليهن من غبطة وفرح . وكانت  
زعيمة العجوز تثير حماسهن بعزفها على ناي غليظ اشبه بمزمار  
الراعي يصدر منه تأوهات حادة طويلة ، وكانت كل منهن عندما  
كانت رقصتها تدنياها منى تضحك في وجهي ضحكة رهيبة مخيفة  
فتسرى القشعريرة في بدني كله .

تذكرت عندئذ عادة الشعوب الهمجية التي ترقص حول الاسرى  
قبل ذبحهم ، ولم يسعني الا ان ادع هؤلاء النسوة يفرغن من رقصة  
الموت التي لم يكن لدى ادنى شك في نتائجها الحتمية . ومع ذلك لم  
أتمالك نفسي من ان ارتعد عندما رايت كلا منهن فجأة تضع في النار  
نصل سيف او بلطة او طرف مسلة طويلة او منشارا .

واوشكت الرقصة ان تنتهى ، واصبحت ادوات التعذيب حمراء  
كالجمر ، وأشارت العجوز الى الزنجيات وراحت كل منهن تتناول  
الاداة التي وضعتها في النار ، وعندئذ ادركت في وضوح  
ما ينتظرني من عذاب وايقنت ان كل زنجية منهن ستكون  
جلادا لى . واصدرت العجوز اشارة اخرى فبدان  
رقصة جديدة دائرية وهن يصحن صيحات مخيفة . واطبقت عيني  
حتى لا ارى وجوههن البشعة الشيطانية وادوات التعذيب التي  
يتطاير منها الشر وانتظرت متوترا اللحظة التي احس فيها بجسدي  
وهو يتمزق وسرت القشعريرة في كياني . وكانت لحظة رهيبة  
حقا .

ولكنها لم تطل لحسن الحظ ، فما ان همت النسوة بالانقضاء  
على حتى سمعت من بعيد صوت الزنجى الذي اسرنى . كان يركض  
نحونا وهو يصيح :

— ماذا تفعلن بأسيرى ايتها اللعينات ؟ .. ماذا تفعلن ؟ .. اتركن  
اسيرى .

Looloo

٦٧

www.dvd4arab.com

٥ - لعب الكبر



فتحت عيني . كان النهار قد طلع . واسرع الزنجي نحونا وهو ياتي بإشارات غاضبة . وكانت الساحرات قد توقفن . ولكن لم يبد عليهن أى تأثر من تهديداته وانما بدا عليهن الدهول وهن يرين الرجل الذى يصاحب الاسود .

كان رجلا ضخما الجسم قصير القامة . كان قزما يخفى وجهه خلف قناع أبيض به ثلاثة ثقوب فى مواضع القم والعينين على طريقة النساك الزاهدين . وكان هذا القناع يغطى وجهه وعنقه وكتفيه وصدره المكشوف الذى بدا كان اظافرا قد خدشته وتدلّى فوقه ايقونة فضية معلقة فى سلسلة ذهبية . ورايت مقبضا على هيئة صليب لخنجر معلق بحزام فى وسطه يربط جوتلة مخططة بخطوط خضراء وصفراء وسوداء تنتهى بشرابات حتى قدميه الكبيرتين المشوهتين . وكان عارى اليدين كصدره ، وفى يمينه مراوّة بيضاء وتدلّى من حزامه مسبحة بجوار الخنجر ، ويضع على راسه قبعة ذات اجراس لم ادهش عندما عرفت فيها قبعة هاببراه ، ولحظت ان القبعة ملوثة ببقع من الدم ولم يتطرق الى الشك فى انه دم المهرج المخلص . وبدأت لى هذه القبعة دليلا جديدا على موته ، وأثارت فى نفسى حسرة جديدة .

وعندما رات الزنجيات هذا الرجل سجدن وهن يصحن فى صوت واحد « الأوبى » أى الساحر الافريقى .

وادركت ان هذا الرجل هو الساحر فى جيش بياسو .

قال لهن فى صوت اجش أمر : كفى .. كفى .. اتركن اسير بياسو .

نهضن صاخبات والقين بأسلحة الموت واخذن مراولهن ، وابدى الساحر اشارة تفرقن بعدها كما لو كن جيشا من الجراد .

وتفرس الساحر فى وجهى عندئذ ولم يلبث ان اجفل وارعد خطوة الى الوراء ورفع هراوته نحو الزنجيات كما لو كان يريد ان يدعوهن وسمعته يفهم بين شفتيه بكلمة « الملعون » ثم همس بيضع كلمات

فى اذن الاسود ومضى بعد ذلك عاقدا ذراعيه مطرقا براسه كما لـ  
كان قد استفرقته الافكار .

## - ٢٧ -

اخبرنى حارسى عندئذ ان بباسو يريد ان يرانى وان امامى ساعة  
لكى استعد لهذه المقابلة التى ستكون قضيعة دون شك .

ولكن كان معنى ذلك اننى سأتبقى على قيد الحياة ساعة اخرى .  
وقى انتظار ذلك راحت عينائى تدوران فى معسكر المتمردين . وكان  
نور النهار يبين ادق نقاطه ، ولو اننى كنت فى حالة ذهنية اخرى  
فاننى ما كنت لاستطيع ان امنع نفسى من ضحك متواصل بسبب  
غرور السود فقد كانوا يبدوون جميعا فى ازياء عسكرية وكهنوتية  
سلبوها من ضحاياهم ، وكانت اكثر الازياء عبارة عن خرق ممزقة  
مصبوغة بالدماء . . قطعة من الدانتلا تزين سيفا ، وشرايط مختلفة  
الالوان يلقونها حول اكتافهم ، وكانوا يجلسون فى جمود وبلا حراك .  
ولا ريب انهم كانوا يستريحون بذلك من الاعمال التى كانوا مجبرين  
على انجازها طوال حياتهم . كان بعضهم ينام فى العراء تحت  
الشمس ، ورعوسهم بجوار نار محتدمة ، وآخرون عيونهم اما باهتة  
واما غاضبة ، يفتنون اغنية رتيبة وقد جلسوا القرفصاء على عتبات  
اكواخهم المقامة من اوراق الموز بأشكال مخروطية تشبه خيامنا .  
ونسائهم السوداوات او الملوحات تعد طعام المقاتلين بمساعدة  
اولادهن . كنت اراهم يحركون الانيام ( جنس من النبات النشوى  
يؤكل ) والموز والبطاطس والبسلة وجوز الهند والذرة والكرنب  
وانواع اخرى كثيرة من الفاكهة البلدية تطهى مع لحوم الخنزير  
والسلحفاة والكلاب فى مراجل كبيرة سرقوها من بيوت المزارعين .  
وعلى بعد ، فى حدود المعسكر جلس الحرة والساحرات فى  
حلقات كبيرة حول النيران . وكانت الرياح تاتينى بمقاطع من اغانيهم

البربرية . وبعض الحراس جلوس فوق قمم الصخور المجاورة ينثرون  
ارباض القيادة العامة لبياسو . وكان الحصن الوحيد ، فى حالة  
الهجوم ، عبارة عن شريط دائرى من الأوتاد والعسريات المحملة  
بالاسلاب والدخيرة .. هؤلاء الحراس السود كانوا يقفون على قمم  
الصخور العالية التى تكتسوها الاعشاب والاشواك ويرددون بصفة  
مستمرة ، وبكل قواهم تلك الكلمة التى تصون سلام المعسكر :  
لا شئ .. لا شئ ..

وكانت بعض جماعات من الزوج الفضوليين تتجمع حولى من  
وقت لآخر وينظرون الى نظرات كلها وعيد وتهديد .

- ٢٨ -

واخيرا ، جاءت فصيلة من الجنود الملونين المدججين بالسلاح .  
وفك الزنجى الذى يبدو اننى ملكه القيد الذى يربطنى الى الشجرة ،  
وسلمت لرئيس الفصيلة ، واعطاه هذا الاخير كيسا ضخما مقابل  
ذلك اسرع بفتحه . كان فيه بعض النقود . واصطحبت الجنود  
معهم فى حين جلس الزنجى يعد نقوده فى طمع . وتأملت ثيابهم فى  
فضول كانوا يرتدون زيا من الجوخ الاحمر والاصفر على الطريقة  
الاسبانية ويضعون فوق رؤوسهم قبعة ثلاثية الالوان على الطراز  
الاسبانى هى الاخرى تزينها شارة حمراء ، وكانوا يحملون فوق  
ظهورهم بدلا من الجربندية كيسا عاديا . اما اسلحتهم فكانت عبارة  
عن بندقية ثقيلة او سيف او خنجر . وقد علمت بعد ذلك أن هذا  
الزى هو زى الحرس الخاص ببياسو .

قادنى حراس حتى مدخل مفارة نحتتها الطبيعة اسفل شق من هذه  
الشقوق ، وكانت هناك ستارة كبيرة من ذلك القماش الاسيوى  
المعروف باسم الكاشمير المشهور بملامسه الناعم الرقيق ورسوماته  
المختلفة والوانه الرائعة ، تخفى عن الابصار ما بداخل هذه المفارة .

Looloo

www.dvd4arab.com

وكان يحيط بها طوابير عديدة من الجنود المدججين بالسلاح اشبه  
بهؤلاء الذين جاءوا بى .

وكان هناك قنديل ذو خمس شعب معلق بالسلاسل فى القبة ،  
يلقى ضوءا متذبذبا فى جوانب المغارة الرطبة التى لا تدخلها  
الشمس ، وبين صفين من الجنود الخلاسيين رايت رجلا ملونا يجلس  
فوق جذع ضخ لشجرة من اشجار الاكاجو يكسوه تقريبا بساط  
ريش الببغاء . كان هذا الرجل ينتمى الى جنس السكاترا الذى  
لا يميزه عن جنس الزنوج غير لمسة خفيفة من اللون تكاد لا تلاحظ ،  
وكان زيه مضحكا ، فقد كان يضع حول وسطه حزاما من الحرير  
المجدول يربط به سروالا ازرق من القماش الخشن وسترة من الحرير  
الابيض ، قصيرة جدا بحيث لا تصل الى الحزام ، وفى قدميه حذاء  
اسمر وعلى راسه قبعة مستديرة فى اعلاها ريشة حمراء وكتفيتين  
احدهما من الذهب فى وسطها نجمتان من القضة ، وهى شارة  
المرافق والاخرى من الصوف الاصفر مثبت بها نجمتان من القماش  
تبدوان كأنهما شوكتا مهمازين لا ريب أنهما وضعتا فى مكانهما هذا  
لكى تجعلا الكتفية الثانية جذيرة بصاحبتهما . ولم تكن هاتان  
الكتفيتان فى موضعهما الطبيعى وانما كانتا تتدليان على كل ناحيه  
من صدره ، والى جواره ، على بساط الريش سيف مرصع وغدارتان  
مرصعتان هما الاخريان .

وخلف مقعده يقف غلامان ساكتان جامدان يلبسان زى العبيد  
ويحمل كل منهما مروحة كبيرة من ريش الطاووس . وكان هذان  
الغلامان من البيض .

وقطعتان مرصعتان من المخمل الاحمر يبدو انهما علامة لمقعدين  
لائئين من رجال الزعيم ، واحدة على اليمين والاخرى على اليسار .  
واحد هذين المقعدين يجلس عليه الساحر الذى اتقذنى من  
الساحرات . وكان يجلس وقد ثنى ساقيه ، وهراوته فى يده .  
وكان ساكنا كما لو كان صنما فى معبد ، وكنت ارى عينيه المتقدتين  
من خلال ثقبى قناعه وهما تنفرسان فى

وفى كل ناحية حول الزعيم اعلام معلقة بينها العلم الابيض المزخرف  
بزهور الزنبق والعلم الثلاثى الالوان والعلم الاسباني . اما الاعلام  
الاخرى فكانت عبارة عن شعارات مختلفة رايت بينها علما كبيرا  
اسود .

وفى آخر المقارة ، فوق راس الزعيم لفت نظرى شيء ... وهو  
صورة الخلاسى اوجيه الذى صدر الحكم باعدامه فى مدينة الكاب  
فى العام الماضى لاتهامه بالتمرد هو ومساعدته جان باتيست وعشرين  
زنجيا . واوجيه هذا ابن قصاب كان يبدو فى الصورة بالزى الذى  
اعتاد ان يلبسه وهو زى ضابط كولونيل على صدره صليب سان  
لويس وصليب الاستحقاق ، وهو زى اشتراه فى اوروبا من امير  
ليمبورج .

اما الزعيم نفسه ، الذى وقفت امامه فكان متوسط القامة فى  
وجهه الخسيس مزيج من الرقة والقسوة . وادنانى منه وتأملنى  
بعض الوقت فى صمت واخيرا ابتسم ابتسامة خبيثة وقال : انا  
بياسو .

وكنت اتوقع هذا الاسم ، ولكننى لم استطع ان اسمعه من هاتين  
الشفيتين وعليهما هذه الابتسامة الخبيثة دون ان ارتعد . غير ان  
وجهى بقى على هدوئه وكبريائه . ولم أنطق .

قال بفرنسية ركيكة : حسنا . هل اصابك الشلل فلا تستطيع  
ان تحنى عمودك الفقرى وانت فى حضرة جان بياسو ، القائد العام  
للجيوش المحتلة والفريق فى جيش جلالة الملك ؟

وكان الزعماء الثائرون يزعمون تارة انهم نواب ملك فرنسا وتارة  
اخرى انهم نواب قادة الثورة او نواب ملك اسبانيا .

وعقدت ذراعى على صدرى وحدقت فى وجهه فكشر عن انيابه  
وقال : اوه ، اوه ... يبدو لى انك رجل شجاع . حسنا . اصغ  
اذن الى ما سوف اقول لك . هل انت من المولدين البيض ؟

اجبته : كلا . انا فرنسى .

Looloo

www.dvd4arab.com

— حسنا . ارى انك ترتدى زى الضباط ، فكم عمرك ؟

— عشرون سنة .

— متى بلغتها ؟

اثار هذا السؤال ذكريات حزينة فى نفسى وبقيت لحظة غارقا فى افكارى فكرره فى حدة فاجبته :

— فى نفس اليوم الذى شئق فيه زميلك ليجورى .

تقلصت عضلات وجهه لفرط الغضب وكثر عن انسابه للمرة الثانية ، ولكنه تمالك نفسه مع ذلك وقال :

— لقد مضت ثلاثة وعشرون يوما على شئق ليجورى . ايها الفرنسى ، سوف تقول له الليلة انك عشت بعده اربعة وعشرين يوما ، فائنى اريد ان ابقى عليك هذا اليوم لكى تستطيع ان تروى له كيف حصل اخوانه على حريتهم وما تراه فى معسكر جان بياسو القائد العام ومدى سلطة هذا القائد على رجال الملك .

كان جان بياسو وزميله جان فرانسوا يطلقان هذا اللقب على جموعهما من المتمردين السود والخلاسيين .

وامر عندئذ ان يعدوا لى مكانا بين حارسين فى ركن المغارة ، ثم اشار بيده الى بعض الزوج الذين يرتدون زى المساعدين وقال :

— فليجتمع الجيش امام المركز العام للاستعراض .

واردف يقول وهو يتحول الى الساحر : وانت ايها الكاهن . ارتد ثيابك الكهنوتية واحتفل معنا ومع جنودنا بالقداس المقدس .

نهض الساحر وانحنى امام بياسو باحترام كبير وهمس فى اذنيه ببضع كلمات فقاطعه الزعيم فجأة قائلا بصوت مرتفع :

— تقول انه ليس لدينا هيكل للصلاة ؟ وهل هذا بالامر الغريب فى الجبال ؟ ولكن ما عليك فليس الله بحاجة الى هيكل لكى نعبده ، وليس بحاجة الى مذبح مزين بالذهب والدانثلا . ان يوشع والخضر عباده فى الخلاء وفوق الاحجار ، فلنقتد بهما ايها الاب الطيب . ان الله يكفيه ان تكون القلوب سليمة ورة . تقول انك



بحاجة الى هيكل ؟ الا يمكن ان تتخذ هيكلًا من صندوق السكر الكبير  
الذي غنمه رجال الملك أمس من املاك دوبويسون ؟

ونفذت اوامر بياسو على الفور ، ففى اقل من طرفة عين اعدت  
المفارة لكي تكون هيكلًا للصلاة ، ففطوا الصندوق بملاءة بيضاء عليها  
هذه العبارة « دوبويسون وشركاه بنانت » ووضعوا فوقه الآنية  
المقدسة التي سرقوها من كنيسة الاكل ، وهى نفس الكنيسة التى  
اقيم فيها الاحتفال بزقافى . ورأى الساحر عندئذ انه بحاجة الى  
صليب فاخرج خنجره ، وكان مقبضه على هيئة صليب كما سبق  
القول ونصبه بين الآنية ووضع ثوب السكاهن المسروق من نفس  
الكنيسة على ظهره دون ان يكشف القناع عن وجهه وفتح كتاب  
الصلاة لم تحول الى بياسو ، وكان يجلس على بعد خطوات من  
الهيكل ، وقال له انه على استعداد .

واتى الزعيم باشارة من يده على الفور فرفعت الستارة الكاشمير  
كاشفة عن الجيش الاسود كله ، وكان يقف فى اربعة صفوف طويلة  
امام باب المفارة . ورفع بياسو قبعته المستديرة وجثا بجوار الهيكل  
وصاح فى صوت قوى : اسجدوا .

وصاح الزعماء بجنودهم : اسجدوا .

ودوت الطبول على الفور ، وركعت الجنود كلها ، وبقيت انا  
وحدى ، جالسا فوق مقعدى ، ساكنا ، ناقما على ذلك التجديف  
الفظيع الذى يرتكبونه امامى . ولكن الخلاسيين اللذين يحرساننى  
جرا مقعدى الى جوار المقعد ودفعانى من فوقه فسجدت رغما عنى .

وتلا الساحر صلاته ، وقام الفلامان الابيضان بمهمة الشماس  
ومساعدته . وكانت جموع المتمردين ما زالت راكعة تستمع الى  
الصلاة فى احترام . وعندما فرغ الساحر من صلاته رفع القربان  
بين يديه وتحول الى الجنود وصاح :

— انكم تؤمنون بالله الطيب .. وانه هو الذى اريكم اياه .. ان  
البيض قتلوه فاقتلوه البيض .

Looloo

www.dvd4arab.com

نطق بهذه الكلمات بصوت قوى خيل لى اننى سمعته فى مكان ما  
وفى مناسبات اخرى . واطلقت الجموع صيحة مدوية وتلاحمت  
سيوفهم ولولا وجود بياسو لكنت نهايتى فى تلك اللحظة .  
وادركت مدى الشجاعة والفضاعة التى يمكن ان نقود الرجال الذين  
لا يؤمنون الا بالخنجر والذين يسهل التأثير عليهم .

- ٢٩ -

وعندما انتهت الصلاة تحول الساحر الى بياسو وانحنى امامه فى  
احترام . ونهض الزعيم عندئذ وخاطبني بالفرنسية قائلا :  
- انهم يتهموننا بأنه لا دين لنا ، وهأنت ترى ان قولهم هذا  
انما هو قرية واننا مسيحيون طيبون .

ولا ادرى هل كان جادا فى كلامه او كان يهزل . وبعد لحظة امر  
ان يأتوه باناء زجاجى مملوء بحبوب الذرة السوداء والقى فيه ببضع  
حبوب بيضاء ثم رفع الاناء فوق رأسه لكى يراه كل الجنود وقال :  
- ايها الاخوان . انتم الذرة السوداء اما البيض فهم الذرة  
البيضاء .

وبعد ان انتهى من هذه الكلمات راح يحرك الاناء ، وعندما اختفت  
الحبوب البيضاء تحت الحبوب السوداء تقريبا صاح كمن يتكلم عن  
وحى والهام :

- ترون الآن مدى قوة البيض امامكم .

صيحة جديدة ردها الصدى فى كل انحاء الجبل . واستطرد  
بياسو يقول :

- لقد مضى وقت الرقة والمجاملات ، وقد صبرنا كثيرا كالخراف ،  
وكان البيض يشبهون صوفها بشعورنا . ولكن الآن قساة القلوب ،  
غلاظها كالتمور والفهود التى تعيش فى البلاد التى انتزعونا منها .  
ان القوة وحدها هى التى تستطيع ان ترد لنا حقوقنا ، وكل شئ  
يمكن ان يكون ملكا لمن هو قوى لا يعرف الرحمة .

واسترسل يقول : لقد جاءوا ... لقد جاءوا اعداء التقدم  
والانسانية .. هؤلاء البيض ، هؤلاء المستعمرون ، هؤلاء المزارعون  
... هؤلاء التجار . لقد جاءوا بوقاحتهم وبثيابهم الزاهية واسلحتهم  
واحتقرونا لاننا سود وعراة . خيل لهم كبرياؤهم انهم يستطيعون تفريق  
شملنا بسهولة كما يفرق ريش الطاووس اسراب الذباب . ولكن  
جيشنا انقض عليهم انقضا النمل على احدى الجثث ، وسقطوا  
بثيابهم الجميلة تحت ضربات سواعدنا العارية التي كانوا يحسون  
انها تفقر الى القوة ، وهم لا يعلمون ان الخشب الجيد يكون اقوى  
عندما تنتزع منه قشوره . ان هؤلاء الطفاة الملاعين يرتعدون فرقا  
الآن .

ردت على قوله هذا صيحة فرح وانتصار وراح الجميع يكررون  
عبارة الاخيرة : انهم يرتعدون فرقا .

واردف بياسو يقول : ايها الخلاسيون ، وانتم ايها الكونجوليون ،  
فكروا الآن في الانتقام وفي الحرية . وانتم ايها المولدون لا تأخذكم  
بهم الرحمة ، واعلموا انهم لم يعاملوكم ابدا معاملة الاب لاولاده وانما  
معاملة السيد لعبده . كنتم عبيدا لهم كالسود تماما . وبينما كانوا  
يظنون عليكم بالثياب الا ما يكاد يستر عوراتكم كانوا هم يرفلون في  
احسن زينة . العنوا هؤلاء الاباء القساء ، ولكن لا تقتلوا آباءكم بأيديكم  
كما يقول المسيح واذا التقيتم بهم في صفوف الاعداء فمن الذي  
يمنعكم ايها الاصدقاء من ان يقول كل منكم للآخر : اقتل ابى فاقتل انا  
اباك .. الانتقام يا رجال الملك .. الحرية للجميع . ان لهذه الصيحة  
صداها في جميع الجزر . لقد بدأت من سانتو دومينجو وايقظت  
تاباجو وكوبا ، وان الذي رفع الراية بيننا هو بوكمان ، وهو زعيم  
اسود لمائة وعشرين زنجيسا من جمايكا . وكان النصر اول عمل له  
مع زوج سانتو دومينجو .. فلنقتد به ، حاملين المشعل في يد  
والبلطة في الاخرى . لا ترحموا البيض . اذبحوا عائلاتهم ودمروا  
املاكهم . لا تتركوا فيها شجرة واحدة . اقبلوا الارض لكي تتلع

البیض . تشجعوا ایها الاصدقاء والاخوان . سنمضى قریبا لقتالهم وایادتهم . سننتصر او نموت ، فاذا انتصرنا فسوف ننع بکل ملدات الحیاة . اما اذا متنا فسوف نمضى الى السماء ، حیث ینتظرنا فی الجنة کل القدیسین ، و حیث یکون نصیب کل منکم حصة مضاعفة من الخمر .

هذه الخطبة العسكرية التي تبدو لكم سخیفة ایها السادة کان لها اكبر الاثر فی نفوس المتمردين . وصحیح ان التمثیلية الایمائیة التي قام بها بیاسو ، والحماسة التي صاحبت موتہ والتقلصات العجیبة التي ارتسمت على قسما ت وجهه ، كان لكل ذلك تاثير عجیب وقوة سحرية لا استطیع ان اصفهما ، فقد ارتفع الصراخ والصیاح والهتاف . وراح البعض یضربون صدورهم بأیدیهم ، والبعض الآخر یلوحون بهراواتهم وسیوفهم . ربقی كثیرون منهم سجدا وهم فی نشوة لا یتحركون ولا ینطقون . ودوت الطبول وارتفعت اصوات المزامیر وامتزجت بطلقات الرصاص . بدا لی ان الشیاطین قد شقت الارض وقلبت الدنیا راسا على عقب .

واتی بیاسو بأشارة من یده فساد السكون كما لو وقعت معجزة ، وعاد كل زنجی الى مكانه فی صمت . وهذا النظام الذي فرضه بیاسو على مواطنیه بالتاثير على عقولهم واراداتهم ملانى اعجابا فقد بدا لی ان كل جنود هذا الجیش من المتمردين یتكلمون ویتحركون تحت ید الزعیم كملامس البیان تحت اصابع الموسیقی الموهوب .

- ٢٠ -

وهذا منظر آخر .. نوع آخر من السحرة والافتتان اثارا اهتمامی ، واعنى به تضمید الجراحات . كان الساحر یقوم فی الجیش بوظیفة مزدوجة وهی طبیب للروح وطبیب للبدن . وكان یبدا بفحص المریض بعد ان یخلع ثیاب الكهنوت ، وبجواره صندوق

كبير به عيون كثيرة تزرخ بالعقاقر والادوات ، وكان نادرا ما يستخدم هذه الادوات ، وفيما عدا حسكة كان يستعملها بمهارة فى الفصادة كان يبدو اخرق فى استخدام الكلابة بدلا من الملقط والسكين بدلا من المشرط .

وكان يقتصر طوال الوقت على وصف التليو وعصير الليمون والبرتقال وخلاصة بعض الاعشاب البرية وبضع جرعات من النيبذ . وكان الدواء الاثير لديه والذي يزعم انه البلسم الشافى يتكون من ثلاث كتوس من النيبذ الممزوج بمسحوق جوز الهند وجوز الطيب وصفار بيضة مشوية تحت الرماد . وكان يستخدم هذه الوصفة لشفاء كافة انواع الجروح والمرض .

وتعلمون طبعاً ان هذا الدواء مدعاة للسخرية التامة ، تماماً كالعبادة التي يزعم انه مكرس لها . ومن المحتمل ان العلل القليلة التي تم شفاؤها على يديه ما كانت لتكفى لكى يبقى السود على ثقتهم به . لو لم يضم الشعوذة الى عقاراته ولو لم يحاول ايهام السود والتاثير على عقولهم ، فقد كان يقتصر احيانا على مس جراحيهم وهو يقوم ببعض الحركات الصوفية ، وحيانا اخرى كان يحسن استخدام الخرافات القديمة ويمزجها باعتقاداتهم الدينية الحديثة ، ويضع فى الجرح حجرا صغيرة ملفوفا فى قطعة من الشاش يؤمنون بأن له قوة السحر ، وينسب المريض شفاؤه عندئذ الى قوته السحرية ، واذا جاءه احد وقال له ان الجريح الذى عنى به مات متأثرا بجراحه او من ضماداته اسرع يقول فى لهجة متكبرة .

— كنت اتوقع ذلك . انه خائن ، فقد انقلد رجلا ابيض فى الحريق الذى شب فى مسكن فلان ، وان موته لقصاص على ذلك .

ويصفق المتمردون عندئذ وهم مبهورون وقد ازدادت كراهيتهم للبيض ، ورغبتهم فى الانتقام منهم . وقد استخدم الدجال وسيلة اخرى لشفاء المرضى ادهشتنى غرايتها ، فقد جاءه احد زعماء السود وقد اصيب بجرح خطير فى المعركة الاخيرة . وفحص الساحر الجرح طويلا وضمده بقدر استطاعته ثم صعد الى المذبح وقال :

- كل هذا لا شيء .

ثم مزق ثلاث او اربع ورقات من الكتاب المقدس الذى سرقه من كنيسة الاكل وحرقها ومزج رمادها ببضع قطرات من النبيذ صبه فى كوب وقال للجريح : اشرب من هذا الشفاء .

وشرب الآخر فى غباء وهو يحرق بعينيه الحافتين بالثقة فى الدجال الذى رفع يديه الى السماء كما لو ليدعو الله ان يباركه . وربما ساءهم اعتقاد المريض فى شفائه .

- ٢١ -

ثم منظر آخر كان الساحر المقنع الممثل الرئيسى له ، ففى المنظر السابق حل الطبيب محل الكاهن ولكن فى هذا المنظر حل الساحر محل الطبيب ، فقد صاح القزم صيحة كبيرة وهو يشب فى خفة فوق الهيكل حيث وقع فوقه جالسا وساقاه ملتويتان فى جونتته المخططة .

- اسمعوا ايها الرجال . اسمعوا .. من اراد منكم ان يقرأ فى كتاب القدر مستقبلى حياته فليقترب .. ساقول له اننى درست علوم المصريين .

واسرع اليه عندئذ جمهور من السود والخلاسيين .

قال الساحر بذلك الصوت الاصم الذى خيل لى اننى سبق ان سمعته :

- واحد واحد .. اذا اتيتمونى جميعا معا فستدخلون القبور معا .

وتوقفوا على الفور ، وفى هذه اللحظة اقترب من ياسو رجل ملون يرتدى ثيابا بيضاء ويضع على راسه مدراسا على طريقة المستعمرين الاثرياء ويتنطق وجهه بالاستياء . وسأله القائد فى صوت خافت : حسنا .. ما الخبر ؟ .. ماذا بك يا راجو ؟



كان الرجل هو الزعيم الخلاسى لجيوش كاريز ، وكان معروفا باسم الجنرال ريجو ، وهو رجل شديد الدهاء ، يخفى دهائه تحت ستار من السذاجة ، وقسوته تحت ستار من الرقة واللين . ورحت افحصه فى اهتمام :

اجاب يقول فى صوت خافت جدا لم يفت اذنى لاننى كنت على مقربة من بياسو :

- ايها القائد .. جاء الى المعسكر رسول من جان فرانسوا يقول ان بوكمان قتل فى اشتباك مع مسيو دى توزار وانهم قطعوا راسه ونصبوها فى المدينة افتخارا بانتصارهم .

قال بياسو وقد لمعت عيناه بفرحة خفية لثقص عدد الزعماء وارتفاع قدره : اهذا فقط ؟

- ومع رسول فرانسوا رسالة اخرى يريد ان يسلمك اياها . عاد بياسو يقول : حسنا .. خل عنك هذا الشحوب يا عزيزى ريجو .

قال ريجو معترضا : الا تخشى من سوء وقع هذا الخبر على جيشك ؟

اجاب بياسو : انت لست غيبا كما يبدو عليك يا ريجو . انت لا تعرف قدر بياسو بعد . اخر دخول الرسول ربع ساعة فحسب . ودنا بعد ذلك من الساحر ، ولم يكن قد سمع ما سمعته ، اذ كان قد بدا عمله كمطلع على الغيب ، وراح يسأل الزوج المبهورين ويفحص العلامات التى على جباههم وايديهم ويوزع عليهم السعادة تقريبا طبقا لرنين وضخامة القطعة النقدية التى يلقيها العبد امامه فى طبق من الفضة ويستأنف الساحر عملياته المربحة دون ان يقطع تنبؤاته .

قال : ان تعرج الخط الذى على جبينك يدل على انك سوف تصيب ثروة كبيرة من غير اى جهد او عناء .

» اما ذلك الذى يحمل ثلاث تجهيزات ملتوية فذلك نذير شؤم ،

Looloo

www.dvd4arab.com

وصاحبها سوف يفرق لا محالة اذا لم يتجنب الماء جهد استطاعته .  
« اما الخطوط الاربعة التى تنطلق من الانف وتتلاقى كل اثنين  
منها فوق العين فذلك دليل على ان صاحبها سيقع اسير حرب ذات  
يوم وانه سيبقى فى الأسر طوال حياته .

وامسك لحظة ثم استطرد يقول فى لهجة خطيرة : وقد لاحظت  
هذه العلامة ايها الرفيق على جبين بوج جارجال ، زعيم رجال المورن  
روج البواسل .

واكدت لى كلماته هذه مرة اخرى ان بوج جارجال وقع اسيرا ،  
وقد تبع قول الساحر مهمة وحزن جماعة من السود يرتدى  
زعماؤهم سراويل حمراء . كانت هذه الجماعة هى جماعة بوج  
جارجال .

وعاد الساحر يقول : اما اذا كان هناك على الجبين ما يشبه  
الشوكة فان صاحبها سوف يبقى عاطلا او مدمنا للشراب .

قاطعه زنجى اسبانى من سائتو دومينجو متقدم فى السن ، طلب  
منه وهو يجرح قدميه ضمادة . كان قد أصيب بجرح فى جبينه واقتلعت  
احدى عينيه من محجرها وتدللت دامية . وكان الساحر قد نسيها  
اثناء دورته الطبية . وعندما وقع بصره عليها صاح

— وحلقات مستديرة على الجزء الايمن من الجبين ، على خط  
القمر دليل على مرض فى العيون .

ثم انثنى الى المريض المسكين وقال له : اى صديق . ان  
هذه العلامة واضحة على جبينك . دعنى ارى يدك .

اجابه الآخر : وا اسفاه ايها المولى العظيم .. افحص عيني .  
رد عليه الساحر ضاحكا : اى صديقى العزيز ، سوف افحص  
عينك طبعاً ، ولكن ارنى يدك .

وقدم له المسكين يده وهو لا يزال يتأوه : عيني .. عيني .

قال الساحر : اذا تواجدت على خط الحياة نقطة حواس

دائرة فمعنى ذلك ان صاحبها سيكون اعور لان هذه العلامة دليل على فقد احدى العينين ، وانت يا صديقى ستفقدو اعور .

اجابه العجوز وهو يثن من الالم : ولكننى اصبحت اعور .

غير ان الشاعر ، ولم يكن يعرف شيئا فى الجراحة ، ابعده فى خشونة واستطرد غير عابىء بالرجل المسكين .

— اسمعوا ايها الرجال . . اذا كانت الخطوط السبعة فوق الجبين منعرجة غير واضحة فذلك دليل على ان حياة صاحبها ستكون قصيرة . اما من يحمل بين حاجبيه سهمين مشتبكين فسوف يموت فى معركة . وهنا لا املك الا ان اقول لكم ايها الاصدقاء ان بوكمان ، اشجع الشجعان ونصير الحرية يحمل على جبينه هذه العلامة المشؤمة . واذا كان خط الحياة الذى يخرق اليد ينتهى بصليب عند المفصل فهذا دليل على ان صاحبه سوف يشنق .

حبس جميع الزنوج انفسهم عند سماعهم هذه الكلمات ونظروا الى الدجال فى افتتان ودهشة ، واردف هذا الاخير يقول :

— ولكن لا يسعنى التوفيق بين هاتين علامتين اللتين تهددان بوكمان بخوض معركة وبالشنق فى وقت واحد ، ومع ذلك فان فنى فى قراءة المستقبل لا يمكن ان يخطئ .

وامسك عن الكلام وتبادل نظرة مع بياسو ، وهمس هذا الاخير بضع كلمات فى اذن مساعده خرج هذا على اثرها على الفور . وعاد الساحر يقول بلهجة الخبيثة وهو يتحول الى سامعيه :

— اما الفم المفتوح والشفتان الذابلتان والنظرة البلهاء والذراعان المتدليان واليد اليسرى ملتوية الى الخارج دون ما سبب واضح فكل ذلك ينم عن غباء طبيعى وخواء وفضول بليد .

ضحك بياسو ، وعاد المساعد فى هذه اللحظة مصطحبا معه زنجيا يعلوه الوحل والغبار ، وقد تمزقت قدماه من الاشواك والحصى مما يدل على انه قطع مسافة طويلة فى المشى . كان هو الرسول الذى اعلن عنه ريجو . وكان يحمل فى يده رزمة مختومة وفى الاخرى

رق عليه ختم عبارة عن قلب مشتمل بداخله حرفان متشابهان  
يشيران الى الحرفين الاولين من كلمة « الزنوج والخلاسيين » .  
وتحت الختم هذه العبارة : « انهزم العدو وتحطم الاستبداد .  
يحيا الملك » . كان هذا الرق هو جواز المرور الذي سلمه جان فرانسوا  
لرَسُول . وقدمه هذا الاخير لبياسو ، وبعد ان انحنى حتى كاد  
جبينه ان يلمس الارض اعطاه الرزمة المختومة ففحصها بياسو وقرا  
الرسائل التى بها ، ووضع احداها فى جيبه ثم دلك الباقية فى  
يديه وصاح فى صوت حزين :

— اى رجال الملك !

انحنى الجميع فى احترام ، وعاد بياسو يقول : اى رجال  
الملك ، اليكم الرسالة التى ارسلها جان فرانسوا ، اميرال فرنسا  
وفائد جيوش ملك اسبانيا الى جان بياسو القائد العام لجيوش  
البلاد المحتلة .

« انهزم بوكمان ، الزعيم النبيل ، زعيم المائة والعشرين زنجيا  
من جامايكا والذي اعترفت به حكومة الجنرال بل كولومب ، وقتل  
فى الاشتباك الذى دار بينه وبين السافل توزار وقطعت راسه وعلقت  
فى مدينة الكاب .. » ولا بد لنا الآن من الانتقام .

قوبلت هذه الكلمات بصمت عميق يشوبه يأس اشد عمقا ، ولكن  
الساحر اعتدل فى هذه اللحظة فوق الهيكل وهز عصاه البيضاء دليلا  
على الفوز وقال :

— ان علوم العرافين لم تخدعنى .. ايها الاصدقاء والاخوان ،  
وانتم جميعا يا من هنا ، بماذا تنبأت ؟ وماذا قلت ؟ ان العلامات  
التى على جبين بوكمان انبأتنى بان عمره قصير وانه سيموت هنا ،  
فى معركة . كما انبأتنى خطوط يده بانه سيموت شتقا ، وقد  
تحققت تنبؤاتى تماما ومات بوكمان فى المعركة ثم شقق . ابعد  
هذا لا تصدقوننى ؟

تبدل صمت الزنوج الذى قوبل به نبا موت بوكمان الى اعجاب

Looloo

www.dvd4arab.com

٦ - الحب الكبير

كبير يشوبه خوف اكبر . وراح الساحر يمشى جيئة فوق الهيكل الكبير وقد اتمله الفرور والعجب ، وضحك بياسو وقال يخاطبه :

— ما دمت تعرف الغيب يا سيدى الكاهن فقل لى ماذا يخبىء المستقبل لجان بياسو ، القائد العام .

توقف الساحر فوق الهيكل فى تيه وفخر ازاء اعجاب الزنوج ، وقال للقائد :

— تفضل يا صاحب الفخامة :

كان الساحر القزم فى هذه اللحظة اهم رجل فى الجيش كله . . . واقترب بياسو منه وفى عينيه شىء من خيبة الامل والحسد . وخاطبه الساحر قائلا :

— بذلك يا سيدى .

وانحنى لكى يمسك بها ثم قال : هانذا ابدا . ان هذا الخط الطويل فى راحتك دليل على الرخاء والسعادة ، وخط الحياة ينبىء عن حياة طويلة ناعمة بعيدة عن المصائب والآلام ، وعن شيخوخة هادئة . وهذا الخط المستقيم القصير يدل على حكمة عالية وسخاء وكرم كبيرين ، وارى اخيرا ما يجمع العرافون عليه ويقولون عنها انها اسعد العلامات واعنى بها مجموعة من الخطوط الصغيرة على صورة شجرة وارفة تصل الى اعلى اليد وتدل على دوام النعمة والسؤدد ، وخط الصحة طويل يؤكد انك ستعمر طويلا ، وخط الحياة يشير الى حياة زاهرة عامرة بالاعمال الجليلة .

وما ان فرغ الساحر من قوله هذا حتى حول بصره وحدق فى ، ولاحظت مرة اخرى ان صوته مألوف لدى . واستطرد يقول :

— ولكن خط الصحة تحوط به بضع دوائر صغيرة مما يدل على انك ستنجز اعمالا ضرورية يملئها عليك الواجب ، وهو يتوقف فى منتصف الكف مكونا نصف دائرة ، وهذا دليل على انك ستعرض

لاخطار كثيرة على يد الوحوش الكاسرة ، واعنى بهم البيض ، اذا  
انت لم تسرع الى ابادتهم . وخط الحظ تحيط به اغصان صغيرة  
ترتفع حتى اعلى اليد ، دليل على مستقبل العظيمة والسيادة  
الذى ينتظرك ، وهو مستقبل لا يعوقه شئ فى الجزء العلوى مما  
يدل على موهبة فى الحكم . اما الخط الخامس ، وهو خط المثلث  
فهو مستطيل وممدود حتى منبت الاصبع الوسطى ويعدك بالنجاح  
فى كل ما تقوم به من مشروعات . والآن ، دعنى ارى جبينك ايها  
القائد . ان علامة حدوة الحصان بين الحاجبين دليل على انك  
ستعرف كيف تنتقم للالهانة والاستبداد . وهذه العلامة موجودة  
فوق جبينى انا الآخر .

وانارت طريقة الساحر الذى نطق بها عبارته الاحيرة دهشتى ،  
واردف يقول فى نفس اللهجة :

— وهذه العلامة توجد عند الشجعان الذين يعرفون كيف يدبرون  
تورة باسلة ويحطمون العبودية فى معركة . وان مخلب الاسد  
الموجود فوق حاجبك دليل على شجاعتك . ومن يحمل هذه  
العلامة يعرف كيف ينصر القضية التى يعالجها . والذين يتزعمهم  
مثل هذا الرجل لن يندموا ابدا او يتحسروا على اية خسارة ، فهو  
وحده يعادل كل رجال جيشه . وانت ذلك الذى وقع عليه اختيار  
القدر .

قال بياسو وهو بهم بالعودة الى مكانه : شكرا يا سيدى الكاهن .  
استانف الساحر يقول : مهلا يا جنرال . اوشكت ان انسى علامة  
اخرى . ان خط الشمس ظاهر على جبينك بصورة واضحة ، دليل  
على انك تحسن التصرف فى الامور ورغبتك فى اسعاد الناس وفى  
كرمك وسخائك وميلك الى الاسراف .

وبدا ان بياسو فهم ان السهو جاء منه هو لا من الساحر فاخرج  
من جيبه كيسا ضخما من النقود والقساء فى الطبق القضى لكى  
لا تكذب علامة خط الشمس .

**Looloo**

www.dvd4arab.com



ومع ذلك فان طالع الزعيم السعيد كان قد احدث اثره في الجيش  
فان كل المتمردين الذين اصبحت كلمة الساحر عليهم اقوى واشد  
من اى وقت مضى منذ ان جاءهم نبأ موت بوكمان تبذل ياسهم الى  
حماس كبير وراحوا يصبحون وقد وضعوا ثقتهم العمياء فى  
الساحر .

— يعيش الساحر .. يعيش بياسو .

وتبادل الساحر وبياسو النظر ، وخيل لى ان ابتسامه الساحر  
ترد على ابتسامه القائد العام . ولا ادري لماذا شغل ذلك الساحر  
ذهنى فقد خيل لى اننى سبق ان سمعت فى مكان آخر صوتا يشبه  
صوته . واردت ان اؤكد فقلت :

— ايها الكاهن .. ايها الطبيب الكاهن .

تحول الى فجأة فقلت له : ما زال هناك شخص لم تقرا له  
طالع ، وهو انا .

عقد ذراعيه على الشمس الفضية التى تغطى صدره الخشن ولم  
ينطق فقلت :

— وددت ان اعرف بم ينبئك مستقبلى ، ولكن زملاءك المخلصين  
سلبونى ساعتى وتقودى ، وانت لا تقرا المستقبل مجانا .

دنا منى حتى كاد يلامسنى وقال فى صوت اصم : انت مخطيء .  
ارنى يدك .

بسطت كفى له وانا احدث فى وجهه . كانت عيناه تتألقان .  
وفحص يدى لحظة ثم قال :

— حين يكون خط الحياة مقطوعا فى النصف بعلامتين متعارضتين  
فمعنى ذلك موت قريب .. وعلى هذا فان موتك وشيك .

وحين يكون خط الصحة فى وسط اليد ويجمع خط الحياة  
وحظ الحظ فى منبتهما فهذا معناه انه لا يجب ان تتوقع ميتة  
طبيعية . واذا اخترق الخط الذى يبدأ من تحت السبابة خط آخر  
فسوف يموت صاحبه ميتة عنيفة . هل تسمع ؟ .. استعد لكى  
تواجه ميتة عنيفة .

Looloo

www.dvd4arab.com

كان يشوب هذا الصوت الذى ينذر بالموت رنة مرحة . واصفيت الى صاحبه فى ازدراء وعدم مبالاة وقلت وانا ابتسم ابتسامة ساخرة :

- ايها الساحر .. انت ذكى ، ولا ريب انك تحسن قراءة المستقبل .

ازداد دنوا منى وقال : هل تشك فى علمي ؟ حسنا . اسمع اذن . ان خط الشمس فوق جبينك مقطوع ، وهذا دليل على ان لك عدوا هو صديقك فى الواقع وصديقا هو فى الواقع عدوك .

كان معنى العبارة الاخيرة يتركز حول بييرو الخائن الذى احبته وغدر بي . اما الصديق الذى كنت اظنه عدوا فهو هايبراه التى اثبتت ثيابه الملوثة بالدماء على انه مات بشجاعة واخلاص .

صحت بالرجل : ماذا تعنى ؟

اجاب : اصغ الى حتى النهاية . اننى قرأت لك المستقبل وهانذا اقرا لك الماضى . ان خط القمر ينحنى فوق جبهتك . وهذا معناه ان زوجتك قد اختطفت .

اجفلت ، و اردت ان اهب من مقعدى ولكن حراسى منعونى وقال الساحر :

- انت لست صبورا فاستمع حتى النهاية . ان الصليب الصغير الذى فوق الخط المنحنى يدل على ان زوجتك اختطفت فى نفس اليوم الذى تزوجتما فيه .

صحت : ايها الشقى ... انت تعرف اين هى .. من انت ؟ وحاولت التخلص من حراسى وانتزاع قناعه ولكننى اضطرت مرة اخرى الى الخضوع للقوة والكثرة . ورايت الساحر يبتعد وهو يقول :

- هل تصدقنى الآن ؟ .. استعد لموت وشيك .

- ٢٢ -

كان لابد من ان تقع هذه المأساة الجديدة تحت عيني لكي تشغلنى وتصرف ذهنى لحظة عن الحيرة التى اوردتنى فيها المهزلة الخفيفة التى قام بها بياسو وشريكه امام الجتود .

كان بياسو قد عاد وجلس فى مقعده والساحر على يمينه ورجو على يساره وعقد الساحر يديه فوق صدره وبدا غارقا فى تأملات عميقة فى حين راح بياسو ورجو يمضغان التبغ . واقبل احد المساعدين يسأل القائد ان كان يحب ان يسرح الجيش ، ولكن اقترب فى هذه اللحظة بالذات ثلاث جماعات من الزنوج من مدخل المفارة وهم يصيحون غاضبين . كان مع كل جماعة منهم اسير تريد تسليمه لبياسو لا لكى يعفو عنه وانما لكى تعرف نوع التعذيب الذى يحلو للزعيم ان يفرضه عليه . وكان صياحهم اكبر دليل على ذلك فقد كانوا يصيحون قائلين : الموت لهم .. الموت لهم .

امرهم القائد بالسكوت باشارة من يده ، وبأن يتقدم الاسرى الثلاثة الى عتبة الخيمة . ودهشت حين عرفت اثنين منهم فقد كان احدهما هو المواطن الجنرال كادو الذى اشار فى اجتماع المجلس بقطع رعوس جميع الزنوج . اما الآخر فكان المزارع الغامض الذى يبدى كراهيته للخلاسين مع ان البيض يعدونه خلاسيا مثلهم . اما الثالث فكان يبدو انه ينتمى الى صفار العاملين . كان يرتدى مئزرا من الجلد وقد شمر عن ساعديه . وقد تم أسر الثلاثة ، كل على حدة وهو يحاول الاختفاء فى الجبال .

وكان العامل البسيط هو الذى استجوبه بياسو فى البداية فقد ساله قائلا : من انت ؟

— انا جاك بيلان ، نجار بمستشفى الآباء بالكاب .

ارتبست فى عينى بياسو امارات الدهشة المشوبة بالخجل وقال وهو يجز على شفته السفلى : جاك بيلان ؟

اجاب الآخر : نعم . الا تعرفنى ؟

رد عليه القائد قائلا : ابدأ انت بمعرفتى بأن تحيينى .

قال النجار : اننى لا احببى عبدى .

صاح القائد العام : ويحك ! .. عبدك ايها الشقى ؟

اجاب النجار : نعم . انا اول سيد لك . تتظاهر بانك لا تعرفنى ؟

**Looloo**

www.dvd4arab.com

ولكن لا تنسى يا جان بياسو اننى بعثك بثلاثة عشر قرشا لتاجر من  
سانتو دومينجو .

انقلبت سحنة جان بياسو فى حين استطرد الابيض يقول :  
حسنا . يبدو انك تخجل لانك خدمتى . افلا يجب على جان بياسو  
ان يفخر وبزهو لانه كان عبدا لجالك بيلان ؟ .. ان امك بالذات ،  
تلك العجوز المجنونة ، طالما نظفت حانوتى وكنتسته . ولكننى بعثها  
اخيرا لمستشفى الالباء فقد شاخت واصبحت لا تقوى على الخدمة  
بحيث ان مدير المستشفى لم يرض ان يدفع لى فيها اكثر من اثنين  
وثلاثين جنيتها . هذه هى قصتك وقصتها ، ولكن يبدو لى انكم  
اصبحتم متكبرين يا معشر الزوج والخلاسيين وانك نسيت الوقت  
الذى كنت تقوم فيه على خدمة سيدك جالك بيلان وانت جاث على  
ركبتك .

اصفى بياسو اليه وقد انقلبت سحته حتى بدت كسحنة النمر  
الكاسر ثم قال : حسنا .

ثم تحول الى الزوج الذين اتوا به وقال : اعدوا حاملين ولوحين  
من الخشب ومنشارا وخذوا هذا الرجل . وانت يا جالك بيلان  
التجار ، اشكرنى لاننى اعد لك ميتة نجار .

وضحك وهو يتصور التعذيب البشع الذى سيلاقه سيده  
القديم . وسرت فى بدنى قشعريرة . ولكن جالك بيلان لم يجزع  
وتحول الى بياسو فى كبرياء وقال :

- نعم .. يجب ان اشكرك لاننى بعثك بثلاثة عشر قرشا .  
وسيق الى مصيره المحتوم .

- ٢٢ -

شهد الأسيران الآخرون هذا المشهد وهما يكادان يموتان فرقا ،  
وتناقض منظرهما المتواضع الهلوع مع ثبات النجار وكبريائه وراحا  
يرتعدان .

Looloo

www.dvd4arab.com

وتأملهما بياسو ، الواحد بعد الآخر ، كما يتأمل الثعلب فريسته ، ثم راق له أن يطيل عذابهما فتبادل مع ريجو حديثا مستقيضا عن أنواع التبغ المختلفة مؤكدا له أن تبغ هافانا لا يصلح الا للتدخين فى السيجار وانه لا يعرف أجود من تبغ اسبانيا ، وكان الفقيد بوكمان قد أرسل اليه برميلين منه استولى عليهما من محل مسيو ليباتو ، مالك جزيرة السلحفاة . ثم تحول الى الجنرال كادو فجأة وقال له :

— وانت ، ما رايك ؟

ولم يكن الرجل يتوقع مثل هذا السؤال فاجفل واجاب متلعثما :

— اننى اشاركك رايك يا صاحب الفخامة .

قال بياسو : هذه مجاملة . اننى اريد رايك انت لا راى انا . هل تعرف تبغا أجود من ذلك الذى استولينا عليه من محل مسيو ليباتو ؟

اجاب كادوا ، وكان بياسو قد اطربه انزعاجه : كلا يا مولاي . قال الزعيم فى فروغ صبر : جنرال .. صاحب فخامة .. مولاي .. ومع ذلك قانت ارسقراطى .

صاح الجنرال : اوه ، كلا حقا . اننى مواطن صالح وصديق للزوج .

قال بياسو فى غلظة : لا يكفى أن تكون صديقا للزوج وانما يجب أن تكون صديقا للمولدين ايضا .

واظن اننى سبق أن قلت ان بياسو من قبيلة ساكاترا . اجاب كادو فى ذلة : هذا ما كنت اقصده . اننى صديق لكل انصار السود والمولدين .

طرب بياسو لاذلاله رجلا ابيض وقال : السود والمولدون ؟ .. ما معنى هذا ؟ .. هل اتيت هنا لكى تهيننا بهذه الكلمة البشعة التى اخترعها البيض لتحقيرنا وازدراءنا ؟ .. لا يوجد هنا غير رجال

Looloo

www.dvd4arab.com

ملونين وسود . هل تسمع ايها السيد المستعمر ؟  
قال كادو : انما هي عادة سيئة ادمنتها منذ الصغر فاصفح عني .  
لم اقصد اهانتك يا مولاي .

— كفاك رياء وتعلقا .. اقول لك اننى لا احب اساليبك  
الارستقراطية .

اراد الرجل ان يعتذر مرة اخرى فقال وهو يتلعثم : لو انك  
عرفتنى ايها المواطن ..

صاح بياسو فى غضب : مواطن ؟ .. من تظننى ؟ .. اننى اكره  
هذا اللقب الثورى . اف تكون من انصار الثورة ؟ .. الا تعرف انك  
تتحدث مع القائد العام لجيوش الملك .. مواطن ! .. يا للواقحة !

لم يدر صديق الزوج المسكين كيف يخاطب هذا الرجل الذى  
يرفض لفة الارستقراطيين ولفة الثوار ، وحاد فى امره وامتلا  
رعبا . ولم يكن بياسو الا متظاهرا فى غضبه واستمتع بحيرة الرجل  
وارتباكاه ايما استمتاع . وقال المواطن الجنرال اخيرا :

— وا اسفاه ! انك تسىء الظن بى ايها المدافع النبيل عن حقوق  
نصف الجنس البشرى .

تفرس بياسو فى وجهه وقال : اذن فانت تحب السود  
والخلاسين ؟

صاح المواطن كادو : اوه ، كل الحب .

ابتسم بياسو وقال : آه .. آه .. يسرنى ان ارى فيك صديقا  
لقضيتنا . وعلى هذا فلا بد انك تكره المستعمرين الاشرار الذين  
قابلوا تمردنا باقى انواع التعذيب . ولا ريب انك ترى معى ان  
التمردين الحقيقيين ليسوا السود وانما هم البيض ما داموا  
يتمردون على الطبيعة البشرية . ولا ريب انك تكره هؤلاء الوحوش .  
اجاب كادو : اننى امقتهم .

واستطرد بياسو : حسنا . ما رايك فى رجل عرض ان يخمد  
ثورة العبيد الاخيرة بقطع خمسين راسا من السود على جانبى الشارع  
الذى يقطن فيه .



امتقع وجه كادو حتى حاكى وجوه الموتى ولم ينطق .  
— ما رايك فى رجل اقترح ان يحيط مدينة الكاب بشريط من  
رءوس العبيد ؟

صاح المواطن الجنرال : العفو .. العفو ...  
قال بياسو فى برود : وهل ترانى اهددك .. دعنى افرغ ..  
بشريط من الرءوس حول المدينة .. ما رايك ، تكلم .  
اعادت عبارة بياسو « وهل ترانى اهددك » بعض الامل الى قلب  
كادو ، وحسب ان الزعيم ربما نمت اليه هذه الامور دون ان يعرف  
مصدرها فأجاب فى شئ من الثبات اتقاء لكل اقتراض مخالف :  
— اظن انها جريمة بشعة .

ابتسم بياسو وقال : حسنا . واى عقاب تقترح ان نوقعه على  
هذا المجرم ؟

وهنا تردد المسكين ولم يدر ماذا يقول فقال بياسو : هل انت  
صديق للسود ام لا ؟

واذ رأى المواطن كادو ان بياسو يتكلم بلهجة عادية ليس فيها اى  
عداء نحوه قال فى صوت ضعيف : ان هذا المجرم يستحق الموت .  
قال بياسو فى هدوء وهو يلغظ التبغ الذى كان يمضغه : حسنا .  
واعاد تظاهره بعدم الاكتراث الامان والطمأنينة الى صديق  
الزئوج المسكين ، وبذل كادو جهدا جبارا لى بعد الشكوك التى  
اثقلت عليه وقال :

— لم يتمن احد النجاح والنصر لقضيتكم مثلى و ...

قاطعه بياسو قائلا : قل لى ابن محلاتك ومخازنك ؟ فان جيشى  
بحاجة الى المؤونة ، ولا ريب ان مزارعك غنية ومهلك التجارى ناجح  
ما دمت تتعامل مع كل تجار العالم .

راى كادو ان يقوم بمحاولة اخيرة فقال فى خجل : اى بطل  
الانسانية ، انهم ليسوا تجارا وانما هم فلاسفة ورجال خير واصدقاء  
للسود .

Looloo

www.dvd4arab.com

قال بياسو وهو يهز راسه : ويحك ! .. اراك عدت الى كلماتك الغامضة . اذا لم تكن محلات او مخازن لكى تنهبها فقيم تصلح اذن !

اشرق نور من الامل فى قلب كادو وهو يسمع هذا السؤال وقال :

— الديك محاسب فى الجيش ايها المقاتل الباسل ؟  
سأله الزعيم : ماذا تعنى ؟

اجاب كادو بقدر ما سمح له خوفه من حماس : ان لمثل هذا الرجل ضرورة كبيرة ، فهو الذى يدبر ميزانية الدولة ، وهو الذى يوفر المال لشراء ما تحتاج اليه من مؤونة ومعدات ، ويوازن بين الاصول والخصوم لكى يعم الرخاء .

قال بياسو وهو ينحنى نحو الساحر : ماذا يعنيه بهذه الكلمات المتناسقة تناسق حبات مسيحتك ؟

هز الساحر كتفيه دليلا على جهله وازدرائه فى حين استعطرده المواطن يقول :

— وقد درست علم الاقتصاد على يدى كبار الاقتصاديين امثال تورجو وراينال وميرابو ، وطبقت نظرياتهم عمليا واصبحت خبيرا فى الامور التى تهتم الحكومات والدول .  
ابتسم ريجو وقال متهكما : ارى ان الاقتصادى لا يقتصد فى كلماته .

وصاح بياسو : قل لى ايها الثرثار .. هل تظن ان لدى دولا وحكومات لكى احكمها .

— ليس الآن ايها الرجل العظيم ، ولكن سيأتى ذلك دون شك .  
ويمكنك ان تستفيد من خبرتى لكى تدير شئون جيشك .

قال بياسو : اننى لا ادير جيشى ايها المزارع وانما اقوده .  
قال المواطن : حسن . ساديره انا اذن . فان لى معرفة كبيرة لمضاعفة عدد البهائم .

زمجر بياسو وقال : اتظن اننا نربى المواشى ؟ انما نحن ناكلها .  
وعندما نفتقر اليها ساجتاز الحدود واستولى على الابقار والخراف  
الاسبانية التى ترعى فى السهول الفسيحة . ثم انه سيكون من دواعى  
سرورى ان انتقم من هؤلاء الاسبانيين ، فهم الذين غدروا بأوجيه  
وسلموه للبيض . وهانت ترى اننى لست منزعجا من ناحية نقص  
المؤن ، واننى لست بحاجة الى علومك الضرورية .

اثار هذا التصريح ارتباك الاقتصادى المسكين ولكنه بذل مع ذلك  
محاولة اخيرة لكى ينجو بجلده فقال :

- لم تقتصر دراساتى على تربية المواشى وانا على دراية تامة  
بأعمال اخرى يمكن ان تفيدك كثيرا . سابين لك كيف تستغل مناجم  
الفحم .

قال بياسو : وفيه يهمنى ذلك . عندما احتاج الى الفحم سأحرق  
ثلاثة فراسخ من الغابات .

استطرد الاسير : سأرشدك الى فائدة كل نوع من الخشب .

صاح بياسو وقد فرغ صبره : انا لست بحاجة الى ضباط  
ولا يوجد فى جيشى غير وظيفة شاغرة هى وظيفة خادم . اسمع ايها  
الفيلسوف . اذا كانت هذه الوظيفة تناسبك فسوف تقوم بخدمتى  
وانت جاث على ركبتيك . ستأتينى بالبائب واليخنى وحساء  
السلحفاة ، وستقف خلفى وتمروح بالمروحة كما يفعل هذان  
الفلانان اللذان تراهما .. ايه .. اجب ، هل تريد هذه الوظيفة ؟  
ولم يكن المواطن يفكر فى شئ غير انقاذ حياته بأى ثمن فانحنى  
اتحناء كبيرة وقد ارتسمت على وجهه دلائل الفرح والامتنان .  
وساله بياسو :

- انت تقبل اذن ؟

- وهل يمكن ان تشك لحظة واحدة ايها السيد الكريم فى اننى  
اتردد امام خطوة كهذه لكى اخدم شخصك .

اتسعت ابتسامة بياسو وازدادت تالقا ازاء هذا الرد وعقد

Looloo

www.dvd4arab.com

ذراعيه ونهض في انتصار ودفع بقدمه رأس الرجل الراكع امامه  
وصاح في صوت مرتفع :

— طاب لي ان ارى الى اى مدى يبلغ جبن البيض بعد ان رايت  
مدى قسوتهم وفظاعتهم . ايها المواطن كادو . اننى ادين لك انت  
بهذا المثل المزدوج . اننى اعرفك . كيف امكن ان تبلغ بك الحماسة  
الى حد ان لا تلاحظ ذلك . انك انت الذى اشرفت على تعذيب  
السود في شهور يونيه ويوليه واغسطس ، وانت الذى نصبت  
خمسین رأسا من السود على جانب الشارع الذى تقيم فيه ، وانت  
الذى اردت ان تذبح عبيدك الخمسمائة الذين ابقيتهم اسرى في  
مزرعتك وأن تحيط مدينة الكاب بسياج من رؤسهم ، ولو انك  
استطعت ان تجعل من راسي انا شعارا لفعلت . وانت الآن تعتبر  
نفسك سعيدا لأننى رضيت ان تكون خادما لى . كلا ، كلا . اننى  
أحرص على شرفك اكثر منك ، وسأعفيك من هذه الاهانة . اعد  
نفسك للموت .

واتى بإشارة فدفعه الزنوج الى جوارى . ولم يستطع المسكين  
ان ينطق بكلمة واحدة ووقع عند قدمى وقد اغمى عليه .

## — ٣٤ —

قال الزعيم وهو يلتفت الى الایسر الاخير واعنى به المستعمر الذى  
يشتبه البيض في أنه من الخلاسين والذى ما كان ليتردد في  
مبارزة من يوجه اليه هذه الاهانة :

— جاء دورك الآن .

وارتفع صخب شديد من جموع الجيش غطى على رد المستعمر ،  
فقد صاح الجميع يقرولون وهم يجزون على أسنانهم ويلوحون  
بقبضاتهم في وجه الایسر : الموت ... الموت .

قال احد الخلاسين معبرا عن رأى الجميع : انه رجل ابيض  
ايها الجنرال ، ويجب ان يموت .

استطاع المزارع ان يتكلم اخيرا رغم ما يعانيه من رعب وخوف  
فقال : كلا ، كلا يا سيدى الجنرال . انا لست ابيض . هذه  
فربة شنيعة . انا خلاسى مولد مثلكم ، من ام زنجية كامهاتكم  
وبناتكم .

صاح السود محنقين . انه يكذب ، فهو ابيض . وطالما ابدى  
كراهيته للسود والخلاسيين .

عاد الاسير يقول : ابدا .. ابدا .. انما هم البيض الذين  
اكرههم . انا اخ لكم وطالما ناديت معكم بان الزنوج هم الاسياد  
وان البيض هم العبيد .

صاح الجميع ثانية : ابدا .. ابدا .. الموت للرجل الابيض ..  
الموت للرجل الابيض .

وعاد المسكين يقول فى بؤس : انا خلاسى .. انا منكم .

سأله بياسو فى يرود : وما دليلك ؟

اجابه الآخر فى قلق : دليلي ؟ .. هو ان البيض احتقرونى  
دائما .

قال بياسو : هذا جائز . ولكنك وقع .

تقدم شاب خلاسى وخاطب المستعمر قائلا : تقول ان البيض  
احتقروك وهذا صحيح ، ولكنك كنت تتظاهر نظير ذلك بانك تحتقر  
الخلاسيين الذين يضمونك الى صفوفهم ، وقد قيل انك بارزت  
رجلا ابيض لانه قال لك انك تنتمى الى عشيرتنا .

علا الصخب وارتفعت صيحات الجميع بطلبون بالموت للمستعمر  
الذى رمانى بنظرة جانبية تنطق بالياس والرجاء فى نفس الوقت  
وبكى وهو يقول :

— هذه فربة . وانى لسعيد وفخور بانتمائى الى السود فانا  
خلاسى .

قال ريجو فى هدوء : الواقع لو انك خلاسى كما تقول ما استخدمت  
هذه الكلمة . لعلكم تعرفون ايها السادة ان الخلاسيين يرفضون

**Looloo**

www.dvd4arab.com

هذه الكلمة فى غضب لانها صفة اخترعها البيض لتحقيرهم .  
قال المسكين : وبع نفسى ! وهل اعرف ما اقول يا سيدى  
القائد العام . الدليل على اننى خلاسى هى هذه الدائرة السوداء التى  
تستطيع ان تراها حول اظافرى .

ولكن بياسو دفع يده بعيدا عنه قائلا : ليست لى خبرة الكاهن  
الذى يستطيع ان يعرف من انت بفحص يدك . ولكن اصغ لى . ان  
جنودى يتهمونك ، البعض بانك ابيض والبعض بانك اخ كاذب ، واذا  
صح ذلك فيجب ان تموت . ولكنك تقول انك تنتمى لعشيرتنا وانك  
لم تتنكر لها ابدا ، وليس امامك غير وسيلة واحدة اسكى تبرهن بها  
على ما تقول وتنفذ نفسك .

سأله المستعمر فى لهفة : وما هى يا سيدى الجنرال ...  
ما هى ؟ .. اننى على استعداد .

قال بياسو ببرود : هى ان تأخذ هذا الخنجر وتطعن به هذين  
الاسيرين الابيضين .

واشار الينا بيده وهو يقول ذلك . وارتد المزارع مرتعا امام  
الخنجر الذى بسطه له بياسو وهو يبتسم ابتسامة شيطانية .

وقال الزعيم : حسنا ؟ .. هل تتردد ؟ ومع ذلك فهذه هى الوسيلة  
الوحيدة التى تثبت لى ولجيشى انك لست ابيض وانك منا ...  
هيا .. هيا .. استقر على امرك ولا تضيع وقتى .

شردت عيننا الاسير وتقدم خطوة نحو الخنجر ثم تخاذلت يده  
وتوقف مكانه وهو يحول بصره عنه . وسرت القشعريرة فى يده .

وصاح بياسو فى فروغ صبر : هيا . اننى على عجل من امرى .  
لك الخيار . اما ان تقتلها بيدك واما ان تموت معها .

وقف المستعمر مكانه وقد سمرته فظاعة الموقف فقال بياسو وهو  
يتحول الى السود :

— حسنا جدا .. انه لا يريد ان يكون جلادا ويفضل التعذيب .  
ارى انه ابيض كما تقولون .

Looloo

www.dvd4arab.com



تقدم السود للامساك به . وكانت لهذه الحركة التى اتوا بها  
تأثيرا عليه فى الاختيار بين الحياة والموت . فان الافراط فى الجبن  
له شجاعته ايضا فقد اندفع نحو الخنجر الذى بسطه بياسو له دون  
ان يمنح نفسه وقتا للتفكير فيما سيقدم عليه وهجم على المواطن الذى  
يقف بجوارى كما يهجم الثمر على فريسته .

وبدا عندئذ عراك رهيب فان صديق الزنوج الذى عذبه بياسو  
باستجوابه بالطريقة التى عرفناها كان قد غرق فى يأس كئيب وراح  
يتابع ما يحدث بين الزعيم والمزارع فى غباء وهو لا يفكر الا فى  
التعذيب الذى ينتظره ودون ان يفهم منه شيئا . ولكنه عندما رأى  
المستعمر يهجم عليه والخنجر يلمع فى يده فوق راسه احس بالخطر  
واعتدل فى وقفته وامسك بيد القتال وهو يصيح فى صوت  
مؤثر :

- الرحمة .. الرحمة .. ماذا تريد بى ؟ .. ماذا فعلت لك ؟  
اجاب الخلاسى وهو يحاول تخليص يده منه وينظر اليه بعينين  
تنطلقان بالدعر :

يجب ان تموت يا سيدى ، فدعنى اقتلك . لن اولك .  
قال الاقتصادى : الموت بيدك انت ؟ ولماذا ؟ ابق على . لعلك  
لست حاقدا على لاننى قلت انك خلاسى منذ ايام . ولكن اترك لى  
الحياة . اننى اعترف واقر الآن انك ابيض .. انت ابيض .  
وسأصرخ بذلك فى كل مكان . ولكن ارحمنى .

صاح الخلاسى محنقا وهو يخشى ان يكون السود قد سمعوا  
هذا التصريح : اسكت .. اسكت ...

ولكن الآخر صاح دون ان يصقئ اليه قائلا انه ابيض وانه من  
ارومة طيبة . وبذل الخلاسى جهدا اخيرا لى يسكته ، وتخلص من  
اليده المسكة به وأغمد الخنجر فى صدر صاحبه . وأحس الاقتصادى  
المسكين بنصل الخنجر يقوص فى جسده وعض الذراع المسكة به  
فى غل وهو يصيح : ايها الوحش .. ايها الوغد .. انك تقتلنى .

Looloo

www.dvd4arab.com

والقى نظرة الى بياسو وهو يقول : انقلدنى يا نصير الانسانية .  
ولكن القاتل اغمد الخنجر بقوة . وانثبق الدم حول يده وعلى  
وجهه . وتخاذلت ساقا المسكين وتهاوت يداه وانطفأت الجذوة فى  
عينيه واطلق صرخة صماء من بين شفثيه ثم سقط ميتا .

- ٣٥ -

هذا المشهد الذى كنت اتوقع ان اقوم بدورى فيه وشيكا جمدى  
من الرعب . اما نصير الانسانية ، فقد شهد عراك الرجلين بعين  
جامدة . وعندما انتهى الامر تحول الى الفلامين المدعورين وقال :  
- الى ببعض التبغ .

وراح يمزغ التبغ فى هدوء .

وكان الساحر وريجو واقفين جامدين ، وبدا الروع فى وجوه  
السود انفسهم ازاء هذا المشهد البشع الذى قدمه لهم زعيمهم .

ومع ذلك فقد بقى رجل ابيض اجير لابد من قتله ، واعنى به انا  
نفسى ، فقد حان دورى . والقيت نظرة الى هذا القاتل الذى سيفقد  
جلادى ، ولم يسمنى الا ان ارثى لحاله . فقد ازرق شفتاه وراحت  
اسنانه تصطك واعضاؤه ترتجف . ولكن لا يفتأ يرفع يده الى وجهه  
بحركة آلية لكى يمسح آثار جريمته . واخذ ينظر فى غباء الى  
الجثة التى عند قدميه وهو لا يستطيع ان يحول عنها عينيه  
الدائفتين .

وانتظرت اللحظة التى سيفرغ فيها من مهمته بالقضاء على .  
وكنت فى موقف غريب مع ذلك الرجل ، فقد أوشك ان يقتلنى قبل  
ذلك لكى يثبت انه ابيض ولكنه سيقتلنى الآن لكى يبرهن على انه  
خلاسى .

وقال بياسو يخاطبه : حسن . اننى مسرور منك يا صديقى .

والقى نظرة الى ثم اردف : واننى اعفبك من قتل الرجل الآخر ،  
فامض . اننى انادى بك اخا وجلادا لجيشنا .

Looloo

٩٩ www.dvd4arab.com

٧ - الحب ال

وما ان فرغ الزعيم من كلماته هذه حتى خرج زنجدى من بين الصفوف وانحنى ثلاث مرات امام بياسو ثم صاح :

— وانا يا سيدى الجنرال ؟

سأله بياسو : ماذا تعنى ؟

قال الزنجدى : ان تفعل شيئا من اجلى يا سيدى الجنرال ؟ انك اعطيت الآن وظيفة لهذا الكلب الابيض الذى يقتل لكى نعرف بنسبته الينا . الا تعطينى وظيفة لى انا الآخر بحكم كونى اسود ؟ بدا الارتباك على بياسو لانه لم يكن يتوقع مثل هذا الطلب ، وانحنى نحو ريجو ، وقال له هذا الاخير :

— لا يمكن ارضاؤه ، فحاول التخلص منه .

وقال بياسو يخاطب الاسود : اتريد ترقية ؟ .. ليس احب الى من ذلك . اية رتبة تريد ؟

— اريد ان اكون ضابطا !

قال القائد العام : آه . تريد ان تكون ضابطا ؟ .. وما هى مؤهلاتك لذلك ؟

قال الاسود فى حماس : انا الذى اشعلت النار فى بيت لاجوست فى اوائل اغسطس ، وانا الذى ذبحت مسيو كليمان المزارع ونصبت رأس مدير اعماله على طرف حربة وذبحت عشر نساء بيضاوات وسبعة اطفال ، وعلقت رأس واحد منهم شعاعا لجنود بوكمان البواسل . ثم حرقت بعد ذلك اربع عائلات فى احدى غرف حصن جاليفيه . مات ابى شهيد التعذيب فى مدينة الكاب ومات اخى مشنوقا فى روكرو واوشكت ان اموت انا نفسى رميا بالرصاص ، وحرقت ثلاث مزارع اللبن وست مزارع لقصب السكر وقتلت مولاي مسيو نويه وزوجته ...

قال ريجو : وفر علينا مواهبك هذه .

وكانت وداعته تخفى قسوة حقيقية ولكنه كان قاسيا فى احتشام ولم يكن يحتمل الافراط فى الاجرام .

Looloo

www.dvd4arab.com

وعاد الزنجى يقول فى زهو : استطيع ان اذكر الكثير غير ذلك ، ولكن لا ريب انك تجد ان هذا يكفى لكى استحق رتبة الضابط ولكى احمل كتفيه على سترتى كزملائى هؤلاء .

واشار الى مساعدى بياسو ، وبدا على القائد العام انه يفكر ثم خاطب الزنجى فى لهجة خطيرة :

— يسرنى ان امنحك هذه الترقية فانا راض عن خدماتك . ولكن لابد من شىء آخر ، فهل تعرف اللاتينية ؟

حملق الشقى فيه وقال : ماذا .. ايها الجنرال ؟

عاد بياسو يقول : نعم .. هل تعرف اللاتينية ؟

وازدادت دهشة الزنجى وعاد يقول : اللاتينية ؟

اجاب بياسو : نعم ، نعم . اللاتينية .

ونشر رايه عليها بضع كلمات باللاتينية معناها « خروج اسرائيل من مصر » . ثم سأل : اشرح لى معنى هذه الكلمات .

وقف الجندى جامدا لفرط ذهوله ودهشته وراح ينقل عينيه المدعورتين من الزعيم الى العلم ومن العلم الى الزعيم ، وقال بياسو فى فروغ صبر :

— هيا تكلم . ما معنى هذه الكلمات ؟

حك الزنجى راسه وفتح فمه واطبقه اكثر من مرة واخيرا قال فى ارتباك : لا ادرى يا سيدى الجنرال ... فانى لا اعرف اللاتينية .

ارتسم الغضب والسخط على وجه بياسو وقال : كيف هذا ايها الفر الاحمق .. اتريد ان تكون ضابطا وانت لا تعرف اللاتينية ؟

تعمت الزنجى مرتبكا : ولكن يا سيدى القائد ...

قال بياسو فى حدة ظاهرة : اسكت . لا ادرى لماذا لا ارميك بالرصاص فى التولوقاحتك هذه . ارايت يا ريجو الى هذا الرجل الوقح الذى لا يعرف اللاتينية ويريد مع ذلك ان يكون ضابطا ! يمكن لمن لا يعرف اللاتينية ان يكون ضابطا يا سيدى الكاهن ؟

Looloo

www.dvd4arab.com

اجاب الكاهن : كلا . ان هذا لا يمكن ان يكون .

- ان هذا الاخ الذى عينته جلادا للجيش والذى تفبطه انت يعرف اللاتينية .

وتحول الى الجلاد الجديد وسأله وهو يفمزه بعينه خفية : اليس صحيحا انك تعرف اللاتينية ايها الصديق ؟

وأدرك الخلاسى ما ينتظره منه القائد فاجاب وهو لا يزال يرتعد فرقا : طبعاً . واتفقنا كل الاتقان .

تحول بياسو عندئذ الى الزنجى وصاح به محتدا : عد وقف فى الصف الذى كنت فيه ولا تطمع فى ترقية بعد الآن والا شنقتك .

وعاد الزنجى الى مكانه مشدوها ومروعا فى نفس الوقت . واطرق برأسه خجلا من رفاقه الذين راخوا يمطرونه بسخريتهم لتطاوله ويشيدون بسعة علم القائد العام .

كان فى هذا المشهد جانبا مضحكا ، ومع ذلك فقد دلنى على ذكاء بياسو الخارق ، فان الوسيلة المضحكة التى استخدمها بكل هذا النجاح لاجباط الاطماع المشددة فى جيش من المتمردين جعلتنى أتأكد من غباء الزنوج ودهاء زعيمهم .

- ٣٦ -

وكانت ساعة الغداء قد اقبلت فجاء بياسو بقشرة سلحفاة كبيرة فيها نوع من اليخنى يتصاعد منه البخار وقد استبدل لحم الضأن بلحم السلحفاة نفسها وكرنبه مسلوقه . ويطبقين كبيرين بأحدهما عنب وبالأخرتين ، ورغيف من خبز الدرة وقربة من النبيل . وأخرج من جيبه بضعة فصوص من الثوم دحك بها الرغيف ثم راح يأكل دون أن يرفع احد جثة القتيل من امامه ، ودعا ريجو ليشاركه الطعام .

اما الساحر فلم يشترك معهما ، وأدركت عندئذ انه ، كغيره من

السحرة ، لا يتناول الطعام ابدا امام احد حتى يعتقد الناس انه من عنصر آخر غير عنصر سائر البشر العاديين وانه يعيش دون طعام .

وفيما كان بياسو يأكل امر احد مساعديه ان يبدأ الاستعراض فراحت جموع السود تمر امام المفارة فى نظام . وكان زنوج المورن روج البادئين ، وكانوا نحو اربعة آلاف ، ينقسمون الى كتيبات صغيرة صفوفها متراسة ويقودهم زعماء يرتدون سراويل واحزمة حمراء . وكانوا جميعا ضخم الجسم اقوياء ، يحملون البنادق والسيوف ، وذلك لعدم استطاعتهم الحصول على اسلحة اخرى ، ولم يكن لهم علم يميزهم ، وانما كانوا يمشون فى صمت ووجوم .

واذ رأى بياسو هذه الجموع تمر امامه انثنى الى ريجو وقال له بالفرنسية :

— متى تخلصنى مدفعية بلانشلاند وروفرى من اشقياء مورن روج هؤلاء ؟ اننى امقتهم ، فهم جميعا كونجوليون تقريبا ثم انهم لا يحسنون القتل الا فى المعارك معتقدين فى ذلك بزعيمهم الاحمق ، مثلهم الأعلى ، ذلك البوج جارجال . انه شاب مجنون ، كان يريد ان يكون كريما وشريفا . الا تعرفه يا ريجو ؟ ارجو الا تعرفه ابدا اذن فقد اسره البيض وسوف يخلصوننى منه كما خلصونى من بوكمان .

اجاب ريجو : بخصوص بوكمان ، هؤلاء هم سود جمايكا الذين يمرون الآن ، وارى فى صفوفهم ذلك الزنجى الذى اوفده اليك جان فرانسوا لكى ينبئك بموت بوكمان . الا تعرف ان هذا الرجل يمكن ان يكذب تنبؤات الساحر بخصوص نهاية هذا الزعيم اذا قال انهم القوا القبض عليه فى المقدمة قبل الاشتباك بنصف ساعة وانه اسر الى بهذا النبأ قبل ان استدعيه اليك .

قال بياسو : يا للشيطان ! انت على حق يا عزيزى . يجب ان نطبق قم هذا الرجل . مهلا .

ثم رفع صوته وصاح : ماكايا !

خرج زعيم السود الماكايا وقدم طبنجته دليلا على الاحترام



فخطبه بياسو قائلا : اخرج من صفوك ذلك الجندي الذي اراه  
هناك والذي لا ينبغي أن يكون بينهم .

وكان الجندي الذي يشير اليه هو رسول جان فرانسوا . واحضره  
ماكايما الى القائد الأعلى . وتظاهر هذا الأخير بالفضب الشديد وقال  
يسأل الزنجي المشدود : من انت ؟

— انا رجل اسود ايها القائد .

— ويحك . اننى ارى انك اسود . ولكن ما اسمك ؟

— اسمى الحربى فانلان واسمى الحقيقى سبابس .

قال بياسو : كيف تجرؤ على حضور الاستعراض بين البنادق  
اللامعة والسيوف البراقة بسيفك الذى لا غمد له وسروالك المعزق  
وقدميك الملوئين بالوحل ؟

اجاب الأسود : ليس الذنب ذنبى ايها الجنرال ، فقد كلفنى  
الأميرال العظيم جان فرانسوا ان احمل اليك نبأ موت الزعيم  
بوكمان . واذا كانت ثيابى قد تمزقت ، واذا كانت قدمائى قد تلوثتا  
فذلك لأننى عدوت حتى كادت انفاسى تضيق لكى آتيك بهذا النبأ فى  
اسرع وقت . ولكنهم احتجزونى فى المسكر و . . .

قاطعه بياسو وقد قطب حاجبيه : اننى لا اقصد هذا ايها  
الاحمق ، وانما اعنى جراتك على حضور الاحتفال بهذه الصورة ،  
قاتل الصلاة على روحك ثم اطلق النار على نفسك .

هنا ايضا تأكدت من نفوذ بياسو الاخلاقى على المتمردين فان  
المسكين وقد تلقى الامر بأن يقتل نفسه لم ينطق بكلمة ، وانما اطرق  
براسه الى الارض وعقد ذراعيه على صدره ثم حيا قاضييه الذى  
لا يرحم ثلاث مرات . وبعد أن أحنى رأسه للساحر الذى باركه  
خرج من المفارة . وبعد بضعة دقائق دوى طلق نارى عرف منه بياسو  
ان الزنجى اطاعه وانتحر .

وهكذا تخلص الزعيم من كل ما يدعو الى قلقه وخوفه ، وتحول  
عندئذ الى ريجو وفى عينيه وميض من السرور وعلى شفثيه ابتسامة  
عريضة كأنه يريد ان يقول : ارايت ؟ .. ما رايك الآن ؟



Looloo

www.dvd4arab.com

واستمر الاستعراض . وهذا الجيش الذى قدم لى صورة غريبة من الفوضى قبل ذلك بساعات لم يكن اقل غرابية وهو يحمل السلاح ، فكنت ارى تارة زنوجا عراة مسلحين بالهراوات والفؤوس والنباييت يمشون على صوت قرون الكباش كالمتوحشين ، وتارة اخرى ارى فرقا من الخلاسيين المسلحين على الطريقة الاسبانية او الانجليزية يمشون بنظام حاملين اسلحتهم ويوقعون خطواتهم على صوت الطبول ثم جماعات من الزنجيات والصبية مسلحين بالمعاول والاسياخ ، وشيوخ تقدم بهم السن واحدودبت ظهورهم لا يقوون على حمل بنادقهم ، ثم سحرة بوجوه مكشرة متقلصة يرفعون عقيرتهم باغان غير واضحة تصاحبهم نغمات الجيتار والطنطن والمزمار . وكانت تقطع هذه الجموع الغريبة من وقت لآخر عصابات من البدو السود وهم يرفعون رءوسهم فى كبرياء ، يحملون فى ايديهم بنادق لامة ويجرون خلفهم عربات محملة بالمؤن المسروقة او بمدافع استولوا عليها من البيض ويستخدمونها ككنيمة اكثر منها سلاح ويفنون اغان حربية بصوت مرتفع . وفوق كل الرءوس ترفرف اعلام من كل لون ومن كل الشعارات ، بيضاء وحمراء وثلاثية الالوان تحمل عبارات مختلفة منها : الموت للكننة والارستقراطيين .. حرية ومساواة .. يعيش الملك .. لتسقط الحكومة وتحيا اسبانيا .. الموت للطفاة .. الى ذلك .. فوضى غريبة تدل على ان كل جنود التمرددين ليسوا الا جماعة من المتوسطين لا غرض لهم ولا هدف وان الفوضى لا تكمن فى صفوف الرجال فقط وانما فى آرائهم وافكارهم .

وكانت كل جماعة منهم ، اذا ما مرت بباب المفارة تخفض علمها ، وكان بياسو يرد على كل تحية ويوجه لكل جماعة اما اطراء واما تعنيقا حسب الظروف ، وكانت كل كلمة من بين شفثيه ، سواء كانت مناسبة او متملقة تقابل باحترام عميق وخوف شديد .

وانتهت جموع البرابرة والهمجيين اخيرا ، واعترف ان منظرهم  
الذى اطربنى فى البداية كان ثقيلًا على نفسى فى النهاية .  
هذا وخيوط النهار تولى مدبرة ، وما كادت الصفوف الاخيرة  
تمر حتى كانت الشمس قد أصبحت قرصا نحاسيا احمر ، تلقى  
بأخر اشعتها على صخور الجبال .

- ٣٨ -

بدا بياسو وقد غرق فى الأحلام . وعندما انتهى العرض ، وبعد  
ان اصدر اوامره الاخيرة ، وعادت الجموع الى اكواخها وجه الى  
الحديث فقال :

- ايها الشاب . لا ريب انك استطعت ان ترى بنفسك مدى  
عبقريتى ومقدرتى . وقد حانت الساعة الآن لكى تمضى وتطلع  
ليجورى بكل ذلك .

قلت فى هدوء : اذا كنت قد بقيت على قيد الحياة حتى الآن  
فلم يكن ذلك بيدى .  
قال : صدقت .

وامسك لحظة كما لو ليرى التأثير الذى ستحدثه بى كلماته التى  
يوشك ان ينطق بها ثم اردف : ولكن بيدك ان تبقى على قيد  
الحياة .

صحت مشدوها : وكيف هذا ؟ .. ماذا تعنى ؟  
استطرد بياسو يقول : نعم . ان حياتك رهن بك انت وفى مقدورك  
ان تنقدها اذا اردت .

كان هذا اول عمل من اعمال الرافة ولعله الاخير الذى يصدر  
من بياسو ، وقد بدا لى كما لو كان عملا خارقا . وذهل الساحر  
مثلئى فوثب من مقعده حيث كان قد بقى مكانه كل هذه المدة ،  
مستغرقا فى التأمل والتفكير كما يفعل دراويش الهنود . ووقف  
امام القائد ورفع صوته قائلا فى غضب :

Looloo

www.dvd4arab.com

— ماذا يقول القائد العام الكريم ؟ .. هل نسي ما وعدني به ؟ ..  
ما من احد يستطيع التصرف فى حياة هذا الاسير : فهى ملكى انا .  
نهض بياسو واقفا دون ان يبدو عليه اى تاثر وكلمه لحظة فى  
صوت خافت واره العلم الاسود الذى سبق ان لحظته ، وبعد  
بضع كلمات متبادلة هز الساحر راسه علامة على الموافقة ثم عاد  
كل منهما الى مكانه ، وخاطبنى القائد قائلا وهو يخرج من جيبه  
رسالة جان فرانسوا الثانية التى كان قد دسها فيه :

— اصغ الى . ان موقفنا ليس على ما يرام . وقد لقي بوكمان  
حتفه فى معركة ، واباد البيض الفى زنجى من المتمردين .  
والمستعمرون مستمرون فى تعزيز ثكناتهم واقامة المراكز العسكرية  
فى السهول . وقد اضعنا بفلطنا فرصة الاستيلاء على مدينة الكاب .  
ولن تحين هذه الفرصة ثانية قريبا ، ومن ناحية الشرق يخترق  
النهر الطريق العمومى ، ولكى يمنعنا البيض من عبوره اقاموا مدفعية  
ضخمة فوق جسور عائمة ، وفى ناحية الجنوب طريق عام يخترق  
هذا البلد الجبلى يدعى « اعالى الكاب » وقد حصنوه بمدفعية شديدة  
هو الآخر ، وحصنوا الموقع من ناحية الارض بسياج من اعواد  
قصب السكر ، اقامه الاهالى وزودوه بمتاريس شائكة . ومدينة  
الكاب ، بهذه الطريقة ، فى حوى من جيوشنا . والكمين الذى  
نصبناه فى عنق دوميت مولاتر فقد تأثره . اضف الى كل هذه  
الهزائم التى متينا بها الحمى التى تفشت فى معسكر جان فرانسوا .  
ونتيجة لهذا كله فان اميرال فرنسا العظيم يرى ، ونحن معه ،  
ان من الاوفق ان نفاوض المحافظ بلانسلاند والجمعية الاستعمارية ،  
وها هى الرسالة التى نوجهها الى الجمعية فى هذا الصدد ،  
فاسمع :

« السادة النواب ،

« لقد حلت المصائب والكوارث بهذه المستعمرة الفنية المهمة والمت  
بنا ولم يعد لدينا ما نبرر به اعمالنا . ولكن قد يأتى يوم تعترفون

Looloo

www.dvd4arab.com

فيه بأحقية موقفنا . يجب ان يشملنا العفو العام الذى اعلنه الملك لويس السادس عشر للجميع دون استثناء .

« والا ، وبما ان ملك اسبانيا ملك كريم ويعاملنا معاملة طيبة ويحسن وفادتنا فسوف نستمر فى خدمته بكل حمية واخلاص .

» ونحن نرى ان الملك منحكم ومنح الجمعية بقانون ٢٨ سبتمبر حق الحكم على موقف الاشخاص غير الاحرار والحالة السياسية للرجال الملونين . وسندافع عن قرارات الجمعية الوطنية وقراراتكم المستوفاة بكافة الاجراءات المطلوبة حتى آخر قطرة من دمائنا . ومن المهم ان تعلنوا بقرار مصدق عليه من الجنرال بأن فى نيتكم الاهتمام بمصير العبيد ، وسوف يرضى العبيد بذلك اذا ما عرفوا انكم مهتمون بهم وذلك عن طريق زعمائهم بأن ترسلوا اليهم هذا القرار وبذلك تستتب الامور فى وقت قصير .

» ولكن لا تظنوا ايها السادة النواب اننا نرضى بالتسليم نزولا على ارادة الجمعيات الثورية ، فنحن رعايا ثلاثة ملوك ، ملك الكونجو الذى ولد سيدا لكل العبيد وملك فرنسا الذى ينوب عن آبائنا وملك اسبانيا الذى ينوب عن امهاتنا .. هؤلاء الملوك الثلاثة هم سلالة حكماء المجوس الثلاثة الذى هداهم نجم فى السماء ، مشيرا لميلاد المسيح . واذا نحن خدمنا الجمعيات فقد نضطر الى محاربة اخواننا، رعايا هؤلاء الملوك الثلاثة الذين اقمنا لهم يمين الولاء .

» ثم اننا لا ندرى ما المراد بارادة الامة ما دمنا ، منذ ان خلق العالم لا نعرف شيئا غير ارادة الملك . ان امير فرنسا يحبنا وامير اسبانيا لا يقطع عنا مساعداته وامداداته . ونحن نساعدهما وهما يمداننا ايدي المساعدة فتلك هى قضية الانسانية . واذا حدث واقتدنا هؤلاء الملوك فسوف ننصب علينا ملكا على الفور .

» تلك هى نوايانا التى نرضى بعقد السلام مقابلها .

التوقيعات : جان فرانسوا ، بياسو ،

وسبريز ، مانزو ، توسان واوبر

ومفوضون عن جميع الزوج «



Looloo

www.dvd4arab.com

وأردف بياسو يقول بعد أن فرغ من قراءة هذه الوثيقة التي انطبعت كلماتها في ذهني كلمة كلمة :

— هانت ترى أنا قوم محبوبون للسلام . واليك ما اطلبه منك .  
أنا لم نتعلم ، لا أنا ولا جان فرانسوا في مدارس البيض حيث يدرسون  
اللغة الفصحى . أنا نحسن القتال ولكننا لا نحسن الكتابة .  
ومع ذلك فنحن لا نريد أن نضم رسالتنا التي نرسلها الى الجمعية  
أخطاء نحوية تثير السخرية . ويبدو أنك درست هذا العلم الذي  
نفتقر اليه فصيح الأخطاء التي يمكن أن تكون فيها والتي يمكن أن  
تثير سخرية البيض وأناى امنحك حريتك مقابل ذلك .

كانت تلك الرسالة تحتوى على أخطاء نحوية وسياسية أبت على  
كيريائى أن أقوم بتصحيحها ، ولم أتردد لحظة واحدة ، ومهما يكن  
فما فائدة الحياة ، ورفضت عرضه .

وبدا مشدوها وصاح : كيف هذا ؟ .. أتؤثر الموت على أن تصحح  
بضع كلمات ؟

أجبت : نعم .

— اسمعنى جيدا ايها الشاب المجنون . اننى اقل منك عنادا وامهلك  
حتى الفد لكى تستقر نيتك على اطاعتى .. غدا ، عند مغيب الشمس  
سيعودون بك الى ، فاحرص على ارضائى . وداعا . ان الليل غير  
ناسح . فكر جيدا فان الموت عندنا ليس مجرد موت .

وصاحب كلماته الاخيرة بضحكة مقببة ادركت منها المعنى الذى  
ينطوى عليها والتعذيب الذى اعتاد بياسو أن ينزله بضحاياه .

واستطرد بياسو يقول : كاندى ، خذ السجن ودعه فى حراسة  
رجال المورن روج . أريد أن يعيش يوما آخر ، وقد لا يصبر جنودى  
حتى ينتهى هذا اليوم .

وكان كاندى رئيس حراسة فائق يدي خلف ظهرى وامسك  
الجنود بطرف الجبل وخرجنا من المفارة .



حين سلمنى حراس بياسو الى زنوج مورن روج خيل لى ان اشباحا  
تسلمنى الى اشباح ، وتركتم يربطوننى من وسطى الى جذع شجرة  
دون ان ابدى اية مقاومة . وجاءونى ببعض البطاطا المسلوقة فاكلتها  
بنلك الفريزة الالهية التى يمنحها الله الكريم للانسان وسط مشاغل  
الذهن ، وكان الليل قد اقبل فانسحب حراسى الى اكواخهم وبقي  
منهم ستة فقط ، بين جلوس ونيام ، امام نار كبيرة اشعلوها اتقاء لبرد  
الليل ، ولم تمض بضع لحظات حتى غرقوا جميعا فى نوم عميق .  
ولم يساهم الارهاق الجسمانى الذى عانيته فى تبديد الاحلام  
الغامضة التى شردت فيها افكارى ، فقد تذكرت الايام الجميلة التى  
قضيتها بجوار مارى قبل ذلك باسابيع قليلة دون ان استشف فى  
المستقبل اى احتمال غير احتمال سعادة ابدية . وقارنت بين تلك  
الايام واليوم الذى انقضى حيث وقعت امامى اشياء غريبة كما لو كنت  
اشك فى وقوعها ، ذلك اليوم الذى واجهت فيه الموت ثلاث مرات ،  
وفكرت فى مستقبلى الذى لم يعد يزيد عن يوم واحد ، وهو يوم  
القد والذى لم يكن يدخر لى غير موت مؤكد . وخيل لى اننى اناضل  
كابوسا مريعا ، وتساءلت اذا كان كل ما حدث قد حدث حقا واذا كنت  
موجودا حقا فى معسكر بياسو الدامى ، واذا كانت مارى قد ضاعت  
منى الى الابد ، واذا كان هذا السجين الذى يقوم على حراسته ستة  
من البرابرة والذى ينتظر الموت الزؤام هو انا حقا . ورغم ما بذلت  
من جهد للهروب من هذه الفكرة الملحة الممزقة فان قلبى كان يعود الى  
مارى ، وكنت اتساءل فى قلق عن مصيرها واحاول التخلص من  
قيودى لكى اسرع الى نجدتها معشما نفسى ان الحلم الفظيع لا يلبث  
ان ينقشع وان الله لا يرضى للشور والرزايا . ان تدخل حياة الملاك  
الذى منحنى اياه زوجة ، وهذا الترابط المؤلم لافكارى كان يعيد  
عندئذ الى ذهنى ببيرو فيعمينى الغضب ويخيل الى ان شرايين جبينى

ستمزق . وكرهت نفسى ولعنيتها واحتقرتها لاننى ربطت لحظة صداقتى لبيرو بحب مارى . ودون أن أحاول معرفة السبب الذىلقى به فى مياه النهر الكبير رحت أبكى لاننى لم اقلته ، فهو قد مات ، وانا اوشك على الموت ، والشئ الوحيد الذى رحت اتحسر عليه هو انتقامى .

عصفت بى كل هذه الانفعالات وانا بين اليقظة والنسائم ، وسط الارهاق والضنى اللذين غرقت فيهما . ولا ادرى كم من الوقت بقيت على هذه الحال ، ولكننى انتهت فجأة على صوت رجل يفنى من بعيد اغنية واضحة كان يقول فيها « انما انا المهرب » ففتحت عينى وانا ارتجف . كان كل شئ حولى مظلمًا ، وكان الزوج الذين يحرسونى راقدين والنار تخبو ، ولم اعد اسمع شيئًا . وحسبت اننى كنت واهما وانطبق جفناى الثقيلان ولكننى اسرعت ففتحتهما فى اللحظة التالية على صوت المفنى وهو يفنى اغنية اسبانية بينها هذه الكلمات « انما انا المهرب » .

لم اكن واهما هذه المرة . كان الصوت صوت بيرو وبعد لحظة ارتفع الصوت من جديد وسمعته يردد الكلمات السابقة ، واقبل كلب وراح يتمسح عند قدمى فى مرح . كان راسك . ورفعت عينى . كان يقف امامى رجل اسود، وضوء النهار القى بجوار الكلب ظل سيده العملاق . كان الاسود هو بيرو . وعدت افكر فى الانتقام ، ولكن الدهشة سمرتنى مكانى وعقدت لسانى . لم اكن نائما واذن فالوتى يبعثون . لم يكن هذا حلما وانما كان جسدا حيا امامى . وتحولت عنه فى زعر ، وعندما رأى ذلك تهاوت راسه فوق صدره وتمتم يقول فى صوت خافت :

– انك وعدتني يا اخى الا يرقى الشك الى قلبك ابدا عندما تسمعنى اغنى هذه الاغنية ، فهل نسيت هذا الوعد يا اخى ؟

اعاد القضب صوتى الى وصحت : ايها الوحش . هانذا اجدك اخيرا ايها الجلاد ، يا قاتل عمى ومختطف زوجتى . كيف تجرؤ وتدعونى اخاك . مكانك ولا تقترب منى .

نسيت اننى موثق القياد واننى لا استطيع ابداء اية حركة فخفضت  
عينى حولى لكى ابحث عن سيفى . ولم يفته معنى نظرتى وبدا عليه  
التائر وقال فى انفعال وفى رفق :

— كلا ، كلا . لن اقرب انت تعيس واننى ارئى لك . وانت  
لا ترئى لى على الرغم من اننى اتعس منك .  
هزرت كتفى . وادرك هذا العتاب الصامت ، ونظر الى نظرة حاملة  
ثم قال :

— نعم . انك خسرت كثيرا ، ولكن صدقنى ان خسارتى اعظم  
من خسارتك بكثير .

وايقظ حديثنا حراسى الستة . واذا راوا رجلا غريبا امامى اسرعوا  
بالنهب وهى يسكون اسلحتهم ، ولكن ما ان وقع بصرهم على بيرو  
حتى اطلقوا صرخة تدل على الدهشة والسرور وخروا ساجدين  
امامه .

ولكن هذا الاحترام الذى ابداه الزوج نحو بيرو ، واهتمام راسك  
وتمسحه بسيده وبى فى نفس الوقت وهو ينظر الى فى قلق بسبب  
برودى فى استقباله ... لم يستطع كل هذا ان يخفف من غضبى الذى  
اصبح عاجزا بسبب القيود التى تحول بينى وبين اظهاره .  
واخيرا صحت وانا ابكى قهرا تحت القيود التى تشل حركتى :  
اوه .. اوه .. ما اشقانى !

وكنت قد ندمت لان هذا الشرير قد اوقع بنفسه مواقع الردى  
وحسبته مات وتحسرت على انتقامى ، ولكن ها هو الآن يأتى لى  
يبدى لى احتقاره ، وها هو حى يرزق امام عينى ، واستطيع ان امتع  
نفسى بتمزيقه اربا .. اوه .. من يفك قيودى هذه ؟

تحول بيرو نحو الزوج ، وكانوا لا يزالون يقفون امامه فى خشوع ،  
وقال :

— ايها الرفاق ... فكوا قيود الاسير .

Looloo

www.dvd4arab.com

اطاعه الزوج على الفور وقطعوا الحبال التى تربطنى الى الشجرة .  
ونهضت وقد أصبحت حرا اخيرا ، ولكننى بقيت جامدا مكانى وقد  
الجمتنى الدهشة .

وقال بيرو : ليس هذا كل شيء .

وانتزع خنجرا من احد الجنود وقدمه الى وهو يقول :  
- يمكنك الآن ان تشفى غليلك .. يعلم الله اننى لا اجادلك فى حق  
التصرف فى حياتى . انك انقذتها ثلاث مرات ، وهو الآن لك ، فاضرب  
اذا شئت .

لم يكن فى صوته عتاب او مرارة ، وانما كان فيه حزن واستسلام .  
هذه الطريقة التى فتحت لانتقامى والتى فتحتها ذلك الذى اريد  
النيل منه بالذات كانت كثيرة الغرابة وكثيرة السهولة ، واحسست  
بان كراهيتى لبيرو وكل حبي لمارى لا يكفيان لحملنى على ارتكاب  
جريمة قتل ، وعلى كل حال ، ومهما تكن الظواهر فان صوتا كان  
يصرخ فى اعماقى ان عدوا او مذنبا لا يمكن ان يعرض نفسه للانتقام  
والقصاص . او اقول لكم اخيرا ؟ كان فى العظمة الكبيرة والمهابة اللتين  
تحيطان هذا الرجل القريب العجيب شيئا ملك على كل حواسى فى  
تلك اللحظة رغما عنى . فابعدت الخنجر وانا اقول له :

- اننى اريد ان اقتلك طبعيا ايها الشقى ولكن فى معركة ... لا اريد  
ان اقتلك غيلة ، فدافع عن نفسك .

سالتنى مشدوها : ادافع عن نفسى ؟ وممن ؟

- منى انا .

اتى بحركة تدل على الدهشة وقال : منك انت ؟ .. هذا هو الشيء  
الوحيد الذى لا استطيع ان اطيعك فيه . هل ترى راسك ؟ اننى  
استطيع ان اذبحه ، ولن يمتنعى من ذلك ، ولكننى لن استطيع ارغامه  
على ان يدافع عن نفسه منى ، فهو لن يفهمنى عندئذ . وانا لا افهمك ،  
فانا راسك بالنسبة لك .

واردف يقول بعد صمت : أننى أرى الكراهية فى عينيك كما امكنك ان تراها فى عيني ذات يوم . اعرف انك ابتليت بمصائب كثيرة فقد ذبح عمك واحرق مزارعك وقتل اصدقاؤك ، ونهبت بيوتك ولكن ليس لى يد فى ذلك وانما هم ابناء عشيرتى . اسمع . اننى قلت لك ذات يوم ان اصحابك اساءوا الى فقلت لى انه ليس لك يد فى ذلك ، فماذا فعلت عندئذ ؟

وانبسطت اساريه وتوقع ان يرانى ارتمى بين ذراعيه . ولكننى نظرت اليه نظرة شذراء وقلت له فى غلظة :  
- انك تستنكر ما فعلته عشيرتك بى وتنسى ما فعلته انت .  
سألنى : وماذا فعلت ؟

اقتربت منه فى شراسة ودوى صوتى كالرعد : اين مارى ؟ .. ماذا فعلت بمارى ؟

عند هذا الاسم مرت سحابة على جبينه وبدا عليه الارتباك لحظة واخيرا قطع جبل الصمت قائلا : ماريا ؟ .. نعم . انك على حق .. ولكن اذانا كثيرة تسمعا .

اشعل ارتبাকে وعبارته « انت على حق » جحيما فى قلبى . وظننت انه يتهرب من سؤالى ، وفى هذه اللحظة نظر الى بوجه منبسطة وقال لى فى تأثر كبير .

- اتوسل اليك الا تشك فى . ساقول لك كل شىء فى مكان آخر .  
احببنى كما احبك وثق بى .

وامسك لحظة لى يرى تأثير كلماته واردف يقول فى رفق : هل استطيع ان ادعوك اخى ؟

ولكن غضبى الفيور كان قد استعاد حدته ، وكلماته الرقيقة بدت لى مخادعة وزادت من عنف حدتى فصحت :

- اتجرؤ وتذكرنى بهذا الوقت يا ناكر الجميل ؟

قاطعنى يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع : لست انا ناكر الجميل .

Looloo

www.dvd4arab.com

عدت أقول فى حدة : تكلم اذن .. ماذا فعلت بمارى ؟  
اجاب : فى مكان غير هذا .. فهنا آذان اخرى تسمع ما تقول .  
ثم انك لن تصدقنى والوقت يمر . ها هو النهار يطلع ويجب ان انقذك  
من هنا . اسمع . كل شئ انتهى ما دمت تشك فى ويمكنك ان تقتلنى  
بهذا الخنجر ، ولكن انتظر قليلا قبل ان تقدم على ما تقول انه  
انتقام . يجب ان انقذك اولاً . تعال معى لنلقى بياسو .

طريقته هذه فى التحدث والتصرف كانت تخفى سرا لم استطع  
ان افهمه . ورغم كل ظنونى به كان صوته يحرك جبلا فى قلبى ،  
ولا ادرى اية قوة كانت تسيطر على ، ورايت نفسى اتردد بين الانتقام  
والرثاء وبين الحذر والثقة العمياء . وتبعته .

## - ٤١ -

خرجنا من المعسكر الذى يقيم فيه بوج جارجال . ودهشت وانا  
ارى اننى امشى طليقا فى ذلك المعسكر الهمجى حيث كان كل زنجى  
منهم يتعطش لدمى . وبدلا من ان يتعرض الزنوج لنا كانوا ينحنون  
امامنا بكل احترام وسرور . ولم اكن ادرى منزلة بيرو فى جيش  
الثوار ولكننى تذكرت سلطته القديمة التى كان يمارسها على زملائه  
فى العبودية ، وادركت دون مشقة الاهمية التى يبدو انه يحظى بها  
بين زملائه المتمردين .

واذ بلغنا خط الحراس القائمين على حراسة مفارة بياسو اقبل  
الينا زعيمهم الخلاسى كاندى وهو يسألنا من بعيد مهددا ومتوعدا  
كيف تجرؤ على الاقتراب من الجنرال بهذه الصورة ، ولكن عندما  
سمحت له المسافة بان يتبين ملامح بيرو رفع قبضته الموشاة بالذهب  
فجأة ، وكما لو انه ريع من جراته هو بالذات انحنى حتى كادت  
جبهته تلمس الارض وادخلنا بجوار بياسو وهو يتمم بعبارات لم  
يرد بيرو عليها الا بحركة غامضة .



لم يدهشنى الاحترام الذى يبديه السود نحو بيرو ولكننى حين رايت كاندى ، وهو احد ضباطهم الرئيسيين يبدى كل هذا الخشوع امام عبد عمى رحت اتساءل من يكون هذا الرجل الذى يبدو ان سلطانه عظيم هكذا . وكان الامر شيئا آخر عندما دخلنا على القائد العام ، وكان جالسا وحده ياكل بعض الفاكهة فى هدوء ، فما ان رآى بيرو حتى نهض مسرعا محاولا اخفاء دهشته وارتباهه وخيبة امل كبيرة تحت مظاهر احترام عميق ، وانحنى فى خشوع امام رفيقى وقدم له عرشه . ولكن بيرو رفض قائلا :

— لم آت يا جان بياسو لكى آخذ مكانك ، انما آتيت لكى اطلب منك صنيعا فحسب .

اجابه بياسو وهو يضاعف من تحياته واحتراماته : انت تعرف يا صاحب السمو انك تستطيع التصرف فى كل ما يملكه جان بياسو ، بل بجان بياسو نفسه .

واذ سمعته يدعوى بيرو بصاحب السمو ، وهو لقب رفيع ، زادت دهشتى . واجابه بيرو على الفور :

— لست اطلب منك شيئا من ذلك .. لا اطلب منك الا حياة وحرية هذا الرجل .

واشار بيده الى . وذهل بياسو ولكن تردده لم يطل لانه اسرع يقول :

— اننى شديد الخيرة يا صاحب السمو ، فانت تطلب منى اكثر مما استطيع ان امنحه اياك ، وهذا امر مؤسف جدا . ان هذا الاسير ليس ملكا لجان بياسو ، ولا شأن لبياسو به .

سأله بيرو فى حدة : ماذا تعنى ؟ .. شأن من اذن ؟ .. أتوجد هنا سلطة غير سلطتك ؟

— نعم يا صاحب السمو ، للأسف .

— سلطة من اذن ؟

— سلطة جيشى .

كانت الرقة والدهاء الذى يتهرب بياسو بهما من اسئلة بيرو  
الواضحة المترفعة تدل على انه لا يريد ان يمنح الآخر اكثر من  
الاحترامات التى يبدو انه مضطر اليها ، وصاح بيرو يقول :  
- كيف ؟ .. جيشك ؟ .. او لست انت قائده .

واحتفظ بياسو بميزته دون ان يتخلى مع ذلك عن تواضعه وخشوعه  
واجاب يقول متظاهرا بالاخلاص :

- هل تظن يا صاحب السمو اننا نستطيع حقا قيادة رجال  
لا يشورون الا لكى لا يطيعون ؟

لم اكن اعبا كثيرا بالحياة لكى اقطع هذا الصمت ، ولكن ما رايت  
بالامس من سلطان بياسو غير المحدود على جنوده كان يمكنى ان  
يحملنى على تكذيبه واظهار ريائه غير ان بيرو خاطبه قائلا :

- اذا كنت لا تعرف كيف تقود جيشك واذا كان جنودك هم  
رؤسائكم فما هى الاسباب التى يمكن ان تدعوهم لكرهية هذا  
السجين ؟

قال بياسو وهو يخفى قسوته وتهكمه تحت ستار من الحزن :  
ان بوكمان لقى حتفه على ايدى رجال الحكومة . وقد عزم رجالى  
على الانتقام له من هذا الابيض ويريدون ان يعلقوا راسه كما علقوا  
هم راس بوكمان .

قال بيرو : وكيف توافق على مثل هذا العمل الفظيع ؟ اصغ الى  
ياجان بياسو . ان هذه الفظائع هى التى ستسبب فى ان نخسر  
قضيئتنا . كنت اسيرا فى معسكر البيض ، وقد تمكنت من الفرار  
ولم اكن اعرف ان بوكمان قتل كما تقول انت . هذا قصاص عادل من  
السماء لما جنته يده من جرائم . ساطلعلك على نبا آخر . ان جانو ،  
زعيم الزنوج الذى قاد البيض الى كمين فى دوميت مولاتر قد مات  
هو الآخر ، وانت تعرف ان جانو هذا كان لا يقل قسوة وفظاعة عن  
بوكمان . حسنا ... اسمعنى جيدا . ان جانو هذا لم تنقض عليه  
صاعقة من السماء ولم يقتله البيض ، وانما جان فرانسوا نفسه  
هو الذى اوقع به هذا القصاص العادل .

وكان بياسو يصفى فى احترام كئيب فاطلق صيحة دهشة . وفى هذه اللحظة دخل ريجو وحيا بيرو فى احترام كبير ثم همس فى اذن بياسو بوضع كلمات . وارتفع فى الخارج صخب كبير ، فى حين استطرد بيرو :

- نعم . ان جان فرانسوا الذى لا عيب فيه الا حبه للترف والبذخ والظهور فى تلك العربة الفخمة ذات الجياد الستة المطهمة التى تنقله كل يوم من معسكره الى الكنيسة للصلاة .. جان فرانسوا هذا عاقب جانو لما اتاه من فطائع واعدمه رميا بالرصاص امس على الرغم من توسلاته ، عند نفس الشجرة التى كان يعلق عليها ضحاياه وهم احياء ، ففكر فى هذا المثل يا بياسو .. لم هذه المذابح التى تضطر البيض الى القسوة ؟ ان بين جنودنا دجالا خلاسيا يدعى رومين ، ويدعى النبوة ويحرض السود ويقنعهم بان مارى العذراء تتصل به ويدفع زملاءه الى القتل والسلب باسمها .

وقد نطق بيرو باسم مارى فى شئ من الرقة والاحترام ، ولا ادرى كيف تم هذا ، ولكننى احسست عندئذ بالمهانة والاستياء .

واستطرد بيرو يقول : حسنا . وان لديك فى معسكرك رجالا من هذا النوع ، وانا اعلم انه لابد لك وانت تقود جيشا كبيرا مكونا من رجال من جميع البلاد ومن كل الاجناس ، لابد لك من رابطة بينهم وبينهم ، ولكن الا يمكن ان تجد هذه الرابطة فى رجل بعيد عن التعصب والقسوة والشعوذة ؟ صدقنى يا بياسو ، ان البيض اقل منا ، فقد رايت كثيرا من المزارعين يدافعون عن حياة عبيدهم ، وانا لا اجهل ان هناك من يفضل الذود عن ماله قبل ان يذود عن عبيده ، ولكنهم ينظرون الى مصلحتهم على الاقل . ومصلحتنا هى الا نكون اقل رحمة منهم . اتكون قضيتنا اشد قدسية واكثر عدلا اذا نحن ابدا النساء وذبحنا الاطفال وعذبنا الشيوخ وحرقنا المستعمرين فى ديارهم ؟ ومع ذلك فهذا ما نقوم به كل يوم . اجبنى يا بياسو ، هل يجب ان يكون الاثر الذى نتركه خلفنا اثر دماء او حريق دائما ؟

وسكت ، وقد اكسبته ومضة عينيه ورنه صوته قوة اقناع وسلطة  
لا يمكن التغلب عليها ، واطرق بياسو وبدا كتغلب امام اسد يحاول  
ان يهتدى الى حيلة يستطيع ان يفلت بها من كل هذه القوة .  
وفيما هو يفكر بدا ريجو ، زعيم المكايا الذى رأى الكثير من الفظائع  
ترتكب امام عينيه انه يستنكر الاحوال التى رسم بييرو صورة لها  
وقال وهو يتظاهر بالاستياء :

- يا الهى .. ويا للفظائع التى يرتكبها شعب غاضب !

- ٤٢ -

هذا والصخب فى الخارج يتزايد ويبدو انه يثير بياسو . وقد  
علمت فيما بعد ان هذا الصخب كان مصدره رجال مورن روج الذين  
كانوا يطوفون بالمعسكر ويعلنون نبأ عودة منقذى ويبدون رغبتهم  
فى مساعدته مهما يكن السبب الذى دفعه الى اللجوء الى بياسو .  
وقد اقبل ريجو ليخبر القائد العام بذلك ، وخوف بياسو من حدوث  
انشقاق وخيم العاقبة هو الذى دفعه الى ذلك التنازل الذى ابداه  
ازاء رغبة بييرو ، فقد قال له فى خيبة امل ظاهرة :

- اذا كنا قساة نحو البيض فانت قاس نحونا ، وتخطىء اذ  
تتهمنى بعنف التيار ، فهو يجذبني رغما عني . ولكن ماذا يمكنني  
ان افعل لارضائك .

اجاب بييرو : لقد قلت لك ذلك .. دع الاسير يمضى معي .  
فكر بياسو لحظة ثم صاح وهو يضى على وجهه اقصى ما يمكنه  
من سمات الصراحة :

- حسنا يا صاحب السمو . اريد ان ابرهن لك عن رغبتى فى  
ارضائك . ولكن اسمح لى بكلمتين اقولهما للاسير على حدة . وله  
مطلق الحرية فى ان يمضى معك بعد ذلك .

اجاب بييرو : اذا كان الامر كذلك فلك ما تريد .

واخذنى بياسو فى ركن من المفارة وقال لى فى صوت خافت :  
لا استطيع ان امنحك الحياة الا بشرط واحد انت تعرفه ، فهل  
تقبل ؟

وارانى رسالة جان فرانسوا ، ورايت فى الموافقة خسة وجبنا  
فقلت : كلا .

قال مزمجرا : آه . ما زلت على عنادك ؟ اتعتمد اذن على  
نصيرك ؟ .. هل تعرف من هو ؟

اجبته فى حدة : نعم . انه وحش مثلك ، ولكنه اكثر منك خبثا  
ورياء .

اعتدل فى وقفته وبدا عليه الدهول ، وحاول ان يرى فى عيني  
اذا كنت مجدا فى قولى ، وقال :

— ماذا ؟ .. اذن فانت لا تعرفه .

اجبت فى احتقار : لا اعرف فيه الا عبدا لعمى يدعى ببيرو .

زمجر بياسو للمرة الثانية وقال : ها .. ها .. هذا غريب .  
انه يريد ان يرد لك حياتك وحريتك وانت تدعوه « وحشا » مثلى .  
قلت : وماذا يهمنى ؟ لو نلت حريتى لحظة واحدة فلن يكون  
ذلك لى اساله العفو عني وانما لى اسلبه حياته .

قال بياسو : ما هذا الذى تقول ؟ يبدو انك مجد فى قولك وانك  
لست هازلا . ان فى هذه المسألة شيئا لا افهمه . ان هذا الرجل  
يبسط حمايته عليك ولكنك تكرهه . وهو يطلب العفو عنك فى حين  
انك تريد له الموت . ولكن هذا سيان عندي . انك تريد ان تنال  
حريتك لحظة ، وهذا هو الشيء الوحيد الذى يمكننى ان امنحك  
اياه . سادعك تمضى معه ، ولكن اقسم لى بشرفك ان تعود وتسلم  
نفسك قبل مفيب الشمس .. انت رجل فرنسى .

ماذا اقول لكم ايها السادة ؟ .. كانت الحياة ثقيلة على ، ثم اننى  
كرهت ان يكون لبيرو الفضل فى الابقاء على ، والظواهر كلها تحملنى  
على كراهيته . لا ادرى هل دخل فى حسابى ان بياسو لن يتخلى

Looloo

www.dvd4arab.com

عن فريسته بسهولة وانه لن يطلق سراحى ابدا لهذه السبب ؟ لم  
اكن اريد فى الواقع الا بضع ساعات من الحرية لكى اعرف قبل  
ان اموت مصير حبيبتي مارى ، والقسم الذى يطلبه منى بياسو  
ووئوقه فى الشرف الفرنسى كان وسيلة اكيدة وسهلة للحصول  
على يوم آخر . ولهذا اقسمت .

وبعد ان قيدنى الزعيم بهذه الصورة عاد الى ببيرو وقال فى  
خشوع :

— الأسير الأبيض تحت تصرفك يا صاحب السمو ، ويمكنك ان  
تصطحبه فله مطلق الحرية فى ان يتبعك .

ولم ار ابدا مثل هذه السعادة فى عينى ببيرو . وصاح يقول  
وهو يسط له يده :

— شكرا يا بياسو . انك اسديتنى صنيعا جليلا ويحق لك ان  
تطلب منى ما تشاء فى اى وقت ، ولك ان تفعل ما تريد باخوانى  
المورن روج الى ان اعود .

وتحول الى وقال : اما وقد اصبحت حرا فتعال معى .  
وجرنى بقوة عجيبة ، ونظر بياسو الينا ونحن نخرج فى شىء  
من الدهشة تغلبت على مظاهر الاحترام التى شيع بها ببيرو .

### — ٤٣ —

كنت متلهفا لكى انفرد بببيرو ، فان ارتباطه حين سألته عن مصير  
مارى والرقعة الوقحة التى جرؤ بها على النطق باسمها اهاجا غيرتى ،  
تلك الفيرة التى ضاعفت من قسوة قلبى عليه منذ ان اختطف مارى  
اثناء الحريق .

فيم يهمنى بعد ذلك اللوم الشديد الذى وجهه لبياسو الدامى  
امامى ، وحرصه على حياتى ، وتلك الشهامة القريبة التى تتسم بها  
كل كلماته وكل تصرفاته . وفيم يهمنى ذلك السر الذى يحيط به



والذى يظهره على قيد الحياة بعد ان حسبت اننى شهدت موته  
والذى عرفت انه وقع اسيرا فى ايدى البيض بعد ان رايته يقوص  
فى مياه النهر الكبير والذى تغير من عبد الى صاحب سمو ومن  
اسير الى متقذ .. من كل هذه الامور الغامضة التى لا افهم منها  
اشياء كان الشئ الوحيد الواضح امامى هو اختطاف مارى الفظيع  
وهو اهانة لا بد لى من ان انتقم لها ، وجريمة لا بد لها من قصاص .  
وان ما حدث امام عينى من امور غريبة يكاد يكفى لى ارجىء  
انتقامى ، وانتظرت فى فروغ صبر اللحظة التى استطيع ان ارغم  
فيها غريمى على تفسير موقفه ، وقد جاءت هذه اللحظة اخيرا .

وكنا قد مررنا بصفوف الجنود السود الذين خروا ساجدين  
امامنا وهم يقولون : يا للمعجزة ... انه لم يعد اسيرا .

ولا ادرى هل كانوا يتكلمون عنى او عن بيرو . وكنا قد اجتزنا  
آخر حدود المعسكر واختفى آخر حراس يياسو خلف الاشجار  
والصخور . وكان راسك يجرى امامنا مرحا طروبيا ثم يعود الينا ،  
وكان يبيرو بمشى مسرعا فاوقفته فجأة وقلت له :

- اسمع . لا فائدة من المضى معك الى ابعد من هذا فان الاذان  
التى كنت تخشاها لم تعد تستطيع ان تستمع الينا . تكلم . ماذا  
فعلت بمارى ؟

وكان صوتى يتهدج من الانفعال والغضب ، ولكنه نظر الى فى  
رفق وقال : دائما !

صحت محنقا : نعم ، دائما .. دائما .. لن اكف عن القاء هذا  
السؤال حتى آخر رفق لى وحتى آخر رفق لك . اين مارى ؟  
- اما من شئ يمكن ان يزيل عنك شكوكك فيما يتعلق باخلاصى  
لك ؟ سوف تعرف ذلك قريبا .

قلت : بل والآن حالا ايها الوحش . اريد ان اعرف ذلك الان .  
اين مارى ؟ هل تسمع ؟ اين مارى ؟ اجب والا فالوت بيننا ...  
دافع عن نفسك .

اجاب فى اسى : قلت لك اننى لا استطيع ذلك . ان السيل لا يمكن ان يقاوم المنبع ، وحياتى التى انقذتها انت ثلاث مرات لا يمكن ان تقاوم حياتك ، ولو اننى اردت لاستحال على ذلك ، فليس لدينا غير خنجر واحد .

وجرد خنجره وهو يقول ذلك وقدمه الى قائلا : خذ .  
وكنت قد خرجت عن طورى فاخذت الخنجر وشهرته فوق صدره . ولكنه لم يفكر فى الخلاص منه .

قلت له : ايها الشقى . لا ترغمنى على ارتكاب جريمة قتل سافقد هذا فى صدرك اذا لم تقل لى ابن زوجتى الآن حالا .

اجابنى دون غضب : انت السيد واننى اضرع اليك ان تمهلنى ساعة اخرى وان تتبعنى . انك تشك فى رجل يدين لك بحياته ثلاث مرات ، فى ذلك الذى كنت تدعوه اخاك ، فاسمع ... اذا كنت لا تزال تشك فى بعد ساعة فانت حر فى ان تقتلنى . وانت ترى اننى لا اريد ان اقاومك . اضرع اليك باسم ماريما ( واردف يقول فى مشقة ) زوجتك ... ساعة اخرى ، واذا كنت اتوسل اليك هكذا فليس ذلك لاجلى ، انما لاجلك انت .

وكانت تشوب صوته رنة من الاقناع والاسى . ولعله كان يقول الصدق . وخوفه على حياته ما كان ليكفى لى يضقى على صوته هذا الابتهاال الحنون . وبدا لى انه لا يتوسل من اجل ذاته ، وخضعت مرة اخرى لهذا الميل الغريب الذى يمارسه على والذى خجلت فى ذلك الوقت من الاعتراف به . وقلت :

- حسنا ... اننى امهلك ساعة . وسامضى معك .

واردت ان اعيد اليه الخنجر ، ولكنه قال : كلا . ابقه معك ، فانت ما زلت مرتابا فى . ولكن هلم بنا وكفى مضیعة للوقت .

راح يتقدمنى . وكان راسك قد حاول مرارا ان يعاود السير  
ائناء حديثنا ويعود كل مرة وهو ينظر الينا كأنه يسألنا عن سبب  
وقوفنا . واذا رأنا نمشى من جديد انطلق وقد بدا عليه المرح .  
وتغلغلنا فى غابة عذراء ، وبعد نصف ساعة تقريبا وصلنا مفارة  
جميلة خضراء يرونها جدول صغير وتحيط بها اشجار ضخمة تبلغ  
من العمر مئات السنين بينها مفارة مدخلها تخفيه عن الابصار  
اعشاب متسلقة ومتعرشة . وهم راسك بان ينبج ولكن بيرو اشار  
اليه فسكت ، وبدون ان ينطق بكلمة اخذنى من يدى الى المفارة .  
وكانت هناك امرأة تولى ظهرها الى باب المفارة وتجلس على  
بساط من نسيج الحلفاء التفتت عندما سمعت وقع خطواتنا .  
كانت هى ماري يا اصدقائى .

وكانت ترتدى ثوبا ابيض كيوم زفافنا وتضع فى شعرها تاج  
الزهور البرتقالية التى لم اقربها بيدي فى ذلك اليوم . ورائتى  
وعرفتني وأطلقت صرخة وهوت بين ذراعى وهى تكاد تطير من الفرح  
والدهشة . اما انا فكنت مذهولا .

وجاءت على صرختها امرأة عجوز تحمل بين ذراعيها طفلا ،  
اسرعت من غرفة اخرى فى آخر المفارة ، وكانت هى مربية ماري ،  
اما الطفل فكان آخر وليد لعلى المسكين . وكان بيرو قد خرج  
ليأتى بماء من العين المجاورة . ورش قطرات منه على وجه ماري  
فافاقت من اغماؤها وفتحت عينيها وقالت :

- ليوبولد ... حبيبى ليوبولد .

واجبتها : ماري ...

وانتهت بقية كلمائنا فى قبلة .

وصاح صوت مؤثر يقول : ليس امامى .

والتفتنا واذا به بيرو . كان واقفا يشهد فرحتنا كشهيد ،  
وكان صدره المنتفخ يعلو ويهبط والعرق البارد يتصبب من جبينه .  
كانت كل اعضائه ترتجف . وفجأة دفن وجهه بين يديه وهرب من  
المفارة وهو يقول فى صوت مخيف : ليس امامى .

واعتدلت مارى وهى بين ذراعى وهتفت وهى تتابعه ببصرها :  
يا الهى ! اى حبيبى ليوبولد .. يبدو ان حبنا يؤله ... اتراه  
يهوانى ؟

ايقنت من صيحة العبد انه غريمى ، ومن صيحة مارى انه  
صديقى .

اجبتها وانا اشعر بسعادة غامرة تدخل قلبى وبندم كبير فى نفس  
الوقت :

— مارى .. اكنت تجهلين ذلك يا مارى ؟

اجابتنى فى حياء ظاهر : وما زلت اجهله .. كيف .. يحبنى ؟ ..  
لم الحظ ذلك ابدا .

ضممتها الى صدرى وانا سكران وقلت : اننى وجدت زوجتى  
وصديقى من جديد . ما اسعدنى ! وما اعظم ذنبى .. لقد ارتبت  
فيه .

اجابت مشدومة . كيف هذا ؟ . فى بيرو .. اوه . نعم ..  
انك اذنبت فى حقه .

واردفت تقول وهى تخفض عينيها : انك تدين له بحياتى مرتين ،  
وربما اكثر ، فبدونه لالتهمنى التمساح ، وبدونه لوقعت فى ايدى  
الزئوج .. فهو الذى انتزعنى من بين ايديهم فى نفس اللحظة التى  
اوشكوا فيها ان يلحقونى بابى المسكين .

وامسكت عن الكلام وراحت تبكى فسالتها :

— ولماذا لم يرسلك بيرو الى مدينة الكاب ، الى زوجك ؟

اجابت : انه حاول ذلك ، ولكنه لم يستطع ، فقد تعذر عليه  
ذلك لانه كان لابد له من الاختفاء من السود والبيض فى نفس

الوقت . ثم اننا لم تكن نعرف ما حدث لك فقد قال البعض انهم راوك تلقى حتفك ، ولكن بيرو اكد لى العكس ، وكنت واثقة من ذلك لانه لو كان قد حدث لك شيء لاستشعرت به ، ولو انك مت حقا لمت انا كذلك .

— اذن جاء بيرو بك الى هذا المكان ؟

— نعم يا حبيبى ليوبولد . فهذه المغارة فى مكان منعزل ولا يعرف بامرها احد غيره . وانقذ مابقى من اسرتى فى نفس الوقت ، اى مربيتى العجوز واخى الصغير ، واخفانا فى هذه المغارة . واؤكد لك انها مريحة جدا ، والآن وقد لحق بنا الخراب فانه يروق لى الإقامة فيها معك . وكان بيرو يوفر لنا احتياجاتنا . فقد كان يأتى غالبا ، وكان يضع ريشة حمراء فوق رأسه ، وكان يواسينى ويحدثنى عنك ويؤكد لى انه سيعيدنى اليك . ومع ذلك واذا لم أره منذ ايام ثلاثة فقد بدأت أقلق ولكنه عاد معك . اذن فقد ذهب هذا الصديق لكى يبحث عنك .

اجبتها : نعم .

قالت : ولكن كيف يستقيم الوضع اذا كان يحببنى . هل انت واثق ؟

قلت : ائنى أصبحت واثقا الآن ، فهو الذى هم بان يطعننى ورد يده خوفا من ان يتسبب فى ايلامك ، وهو الذى كان يفتى اغنية الحب ونحن فى الاستراحة .

عادت مارى تقول فى لهجة ساذجة : حقا ؟ .. هو غريمك اذن ؟ .. اعنى ان الرجل البفيض صاحب باقة الاقحوان ، هو بيرو الطيب .. لا استطيع ان اصدق هذا . لقد كان مهذبا جدا معى ، وشديد الاحترام ... كان يحترمنى اكثر مما كان يفعل وهو عبد لنا . صحيح انه كان ينظر الى احيانا نظرات غريبة ... ولكن لم يكن ذلك الا حزنا وكنت انسب ذلك الى مصيبتى . لو تدرى مبلغ

Looloo

www.dvd4arab.com

أخلاقه وهو يحدثني عن حبيبى ليوبولد ... ان صداقته كانت  
تحدث عنك كما يحدثني حبيبى عنك تقريبا .

أطربتنى ايضا حات ماري وأثارت حزنى فى نفس الوقت ، فقد  
تذكرت الحدة التى عاملت بها بيرو الوفى واحسست بكل القوة  
التى كانت تكمن فى لومه الرقيق وهو يقول لى فى خضوع : لست  
انا ناكر الجميل .

دخل بيرو فى هذه اللحظة . كانت سحنته كثيفة حزينة ، وبدا  
كما لو كان محكوما عليه بالموت ، عانى اشد انواع التعذيب . وتقلب  
عليها . وتقدم نحوى فى خطوات بطيئة وقال لى فى لهجة يشوبها  
الجد وهو يشير الى الخنجر الذى كنت وضعت فى حزامى .  
- لقد انقضت الساعة .

قلت : الساعة ؟ .. اية ساعة ؟

- تلك التى منحتنى اياها . كنت بحاجة اليها لكى آتى بك  
هنا . وقد توسلت اليك عندئذ ان تمنحنى الحياة ، والان اتوسل  
اليك ان تسلبنى اياها .

تجمعت فى هذه اللحظة كل مشاعر القلب الرقيقة ... الحب  
والصداقة والعرفان بالجميل لكى تمزقنى تمزيقا ووقعت عند قدمى  
العبد من غير ان أستطيع النطق بكلمة واحدة وانا ابكى احر بكاء .  
ورفعنى مسرعا وهو يقول :  
- ماذا تفعل ؟

- اننى ارد لك الاعتبار الذى ادين لك به . اننى لست جديرا  
بصداقة كصداقتك . ان اعترافك بالجميل لا يمكن ان يذهب الى  
حد ان تغفر لى جحودى بجميلك .

ارتسم على وجهه تعبير فيه كثير من الخشونة . كان يبدو انه  
يعانى من معارك نفسية عنيفة . وتقدم نحوى خطوة ثم ارتد . وفتح  
فمه ثم اطبقه . ولكن هذه اللحظة كانت قصيرة فقد فتح لى ذراعيه  
قائلا :



— هل استطيع الآن ان ادعوك اخى ؟

وكان جوابى ان ارتميت على صدره .

واردف يقول بعد سكتة قصيرة : انت كريم ، ولكن المصائب جعلتك ظالما .

قلت له : اننى وجدت اخى ولم اعد تعيسا ولكننى اذنبت فى حقك كثيرا .

— اذنبت ؟ .. انا الآخر اذنبت فى حقك يا اخى .. واذنبت اكثر منك ، ولكنك لم تعد تعيسا الآن ، اما انا فسابقى تعيسا الى الابد ..

— ٤٥ —

خبث فورة الصداقة التى اضاءت وجهه ، وارتسمت على ملامحه سمات حزن عميق ، وقال فى برود :

— اصغ الى . كان ابى ملكا على كاكونجو ، وكان يصدر احكامه العادلة امام بيته ، وكان كلما اصدر حكما يحتسى ، كما هى عادة الملوك ، قدحا مملوءا بنبيد النخيل ، وكنا سعداء واقوياء . وجاء الاوربيون وزودونا بهذه المعارف الخادعة التى خدعتك . وكان زعميهم ضابطا اسبانيا وعد ابى ببلاد اوسع من بلاده ، فتبعه ابى هو واسرته ... فهل تعرف ماذا فعل هذا الضابط يا اخى ؟ .. انه باعنا .

وانتفخ صدر الاسود ولمعت عيناه ، وحطم بطريقة آلية شجرة صغيرة بجواره ثم استطرد يقول دون ان يبدو عليه انه يخاطبني :

— واصبح لملك كاكونجو سييدا ، واصبح ابنه عبدا فى بلاد سانتو دومينجو ، وفرقوا بين الاسد الصغير وابيه الشيخ لكى يسهل ترويضهما ، وانتزعوا الزوجة من زوجها ، وبحث الاولاد عن الام التى اطعمتهم وعن الاب الذى كان يمضى بهم الى النهر

Looloo

www.dvd4arab.com

للاستحمام ولم يجدوا امامهم غير طفلة برايرة ، ورقدوا بين الكلاب .

ولزم الصمت لحظة وتحركت شفتاه من غير ان يتكلم . وكانت نظرتة ثابتة وشاردة . وامسك بذراعى اخيرا وقال فى حدة :

— هل تسمع يا اخى ؟ باعونى لاسياد كثيرين كبهيمة من البهائم . هل تتذكر تعذيب اوجيه ؟ .. فى ذلك اليوم رايت ابنى .. اسمع .. كان هذا فى الطريق .

وارتجفت فى حين اردف هو يقول : ماتت زوجتى ، وطلبت منى ان انتقم .

واستطرد يقول وهو يطرق براسه الى الارض : هل اقول لك ؟ .. لقد كنت مجرما ، فبعد ان ماتت احببت غيرها . ولكن دعنا من هذا ... راحت كل عشيرتى تلح على لكى انقذهم وانتقم لنفسى . وكان راسك ياتينى برسائلهم ، ولم يكن باستطاعتى ارضائهم ، فقد كنت انا نفسى سجيناً فى سجن عمك . وفى اليوم الذى حصلت انت فيه على العفو عنى ، مضيت لكى انتزع اولادى من ايدى سيد مستبد . وعندما وصلت يا اخى كان آخر احفاد ملك كاكوتنجو يحتضر على اثر تعذيب رجل ابيض . وكان الآخرون قد سبقوه .

وامسك لحظة وسألنى فى برود : اخى ... ماذا كنت تستطيع ان تفعل ؟

جمدت هذه القصة المحزنة اطرافى من الهول ، ورددت على سؤاله بحركة تنطق بالتهديد والوعيد . وفهمنى وابتمس فى مرارة ثم استطرد :

— ثار العبيد على سيدهم واقتصوا منه لقتل اولادى وانتخبونى رئيسا لهم ، وانت تعرف المصائب والفظائع التى جرها هذا التمرد ، وعلمت ان عبيد عمك يستعدون للتمرد هم الآخرون فأسرعت الى الاكل فى نفس ليلة التمرد . وكنت انت غائبا ولقى عمك حتفه وهو فى فراشه وأحرق السود املاكه . واذا لم استطع تهدئة

غضبهم لاعتقادهم انهم يثارون لى باحراقهم املاك عمك اضطرتت  
ان انقذ ما تبقى من افراد اسرتك ودخلت الحصن من الفتحة التى  
سبق ان اعددتها ، وعهدت بمربية زوجتك الى اسود مخلص ،  
ووجدت مشقة كبيرة فى انقاذ ماريا ، فقد اسرعت الى المكان  
المستعمل من الحصن لكى تنقذ اصغر اخوتها ، وهو الوحيد الذى نجا  
من المذبحة . واحاط بها بعض الزوج واوشكوا على الفتك بها  
ولكننى تقدمت وامرتهم ان يتركونى انتقم لنفسى بنفسى . واخذت  
زوجتك بين ذراعى وعهدت بالطفل الى راسك ، واتيت بهما الى هذه  
المغارة التى كنت اعرف وحدى مكانها . هذه هى جريمتى يا اخى .

راح ضميرى يبكئى أكثر من ذى قبل ، واحسست بالامتنان فى  
نفس الوقت . واردت ان ارمى عند قدمى بيرو مرة اخرى ، ولكنه  
اوقفنى فى استياء وقال وهو يمسكنى من يدي :

— هيا ، تعال ... اصطحب زوجتك ولنرحل نحن الخمسة .  
وسألته فى دهشة أين يريد ان يمضى بنا فأجابنى :

— الى معسكر البيض ، فهذا المكان غير آمن ، فان البيض  
سيهجمون على معسكر بياسو فى صباح الفد ، وسوف تشتعل القابة  
كلها دون شك ، ثم انه لا يجب ان نضيع لحظة واحدة فان عشرة  
رعوس تضمن راسى ، وفى استطاعتنا الاسراع لانك حر طليق .

ازدادت دهشتى عند سماعى هذه الكلمات ، وسألته عن معناها  
فقال فى فروغ صبر :

— الم تسمع ان بوج جارجال وقع اسيرا .

— بلى . ولكن ما شأنك انت ببوج جارجال ؟

ارتسمت امارات الدهشة على وجهه هو الآخر واجاب فى لهجة  
خطيرة : انا هذا البوج جارجال .

— ٤٦ —

والحق اننى اعتدت المفاجآت مع هذا الرجل ، وقد دهشت وانا  
أرى قبل ذلك بلحظة العبد بيرو يتحول الى ملك افريقى وازددت

Looloo

www.dvd4arab.com

دهشة واعجابا الآن وأنا أرى فيه بوج جارجال ، زعيم متمردى  
المورن روج الكريم الرهيب . وفهمت أخيرا سبب الاحترام الذى  
يبديه كل المتمردين ، بما فيهم بياسو نفسه ، لبوج جارجال ، ملك  
كاكونجو .

وبدا انه لم ير الانطباع الذى أحدثته فى نفسى كلماته الأخيرة ،  
وعاد يقول :

- وقد قيل لى انك وقعت أسيرا فى معسكر بياسو فأنت لى  
أحررك .

- لماذا قلت لى اذن منذ لحظة انك لست حرا ؟

نظر الى كما لو كان يحاول ان يخمن ما الذى حملنى على القاء  
هذا السؤال الطبيعى ثم قال :

- اسمع . كنت صباح اليوم أسير عند قومك ، وسمعتهم يقولون  
فى المعسكر ان بياسو قد عقد النية على اعدام أسير شاب اسمه  
ليوبولد دوفرني عند مغيب الشمس . وقد عززت الحراسة حولى ،  
وعلمت ان اعدامى سوف يلى اعدامك ، واننى اذا هربت فسوف  
يعدمون عشرة من زملائى بدلا منى ، فهل فهمت الآن سبب عجلتى .

صحت أسأله : اذن فانت قد هربت ؟

- وكيف كان يتسنى ان اكون هنا بغير ذلك ؟ اما كان يجب ان  
انقذك ؟ لست مدينا لك بالحياة ؟ .. هيا ، اتبعنى الآن . أنا على  
مسيرة ساعة من معسكر البيض ومعسكر بياسو معا . انظر ...  
ان الظل يمتد على أشجار جوز الهند ، وسوف تغيب الشمس بعد  
ثلاث ساعات . تعال يا أخى فان الوقت يمضى سريعا .

سوف تغيب الشمس بعد ثلاث ساعات ! .. جمدت هذه  
الكلمات الرهيبة الدماء فى عروقى وأعادت الى ذاكرتى الوعد الذى  
قطعته لبياسو . واأسفاه .. اننى ، عندما رايت مارى لم أعد أفكر  
فى فراقنا الأبدى القريب . لم أشعر الا بالسرور والنشوة ، فان  
شتى الانفعالات التى مرت بى أنستنى موتى فى غمرة سعادتى . ولكن

عبارة صديقي ردتني الى الحقيقة المرة .. بعد ثلاث ساعات ستغيب الشمس . كنت بحاجة الى ساعة لكى ابلغ معسكر بياسو . كان واجبى محدودا يفرضه على الشرف ، فقد اعطيت كلمتى لذلك الهمجى ، واننى لافضل الموت على ان اقدم له الفرصة فى احتقار الشيء الوحيد الذى يبدو انه ما زال يؤمن به ، واعنى به شرف رجل فرنسى . كان الاختيار رهيبا ، ولكننى اخترت ما يجب ان افعل غير اننى اعترف ايها السادة اننى ترددت لحظة ... افهل اذنبت لا

### - ٤٧ -

واخيرا اطلقت زفرة حافلة بالاسى واخذت بيد بوج جارجال وامسكت بيد زوجتى ماري المسكينة التى راحت تنظر الى فى قلق الى السحابة الكثيبة التى انتشرت على ملامحى . وقلت وانا ابذل جهدا كبيرا :

- اى بوج جارجال .. اننى اعهد اليك بالكائن الوحيد الذى احبه اكثر منك ... عد بها الى المعسكر وحدها لاننى لا استطيع مرافقتكما .

صاحت ماري وهى تلهث : رباه ! .. امصيبة اخرى ؟ ارتجف بوج جارجال وارتسمت فى عينيه الدهشة البالغة وقال : ماذا تقول يا اخى ؟

وازاء الرعب الذى رايته على وجه ماري وخوفها من مصيبة اخرى دفعتها رقا المفرطة الى توقع حدوثها رايته ان الواجب يحتم على ان اخفى عنها الحقيقة وان اوفر عليها وداعا مؤثرا فانحنيت فوق اذن بوج جارجال وقلت له فى صوت خافت :

- اننى اسير ، وعدت بياسو ان اعود واضع نفسى بين يديه قبل مغيب الشمس . اننى وعدته ان اموت .



Looloo

www.dvd4arab.com

وثب لفرط الغضب وصاح يقول : يا للوغد ! .. الهلدا اراد ان يتحدث معك على حدة ؟ .. لكى ينتزع منك هذا الوعد ؟ .. كان يجب ان ارتاب فى هذا الشقى بياسو . كيف لم اتوقع منه مثل هذا الغدر ؟ .. انه ليس اسود وانما هو خلاسى .

قالت مارى مدعورة : ما الخبر ؟ .. واى غدر ؟ .. واى وعد ؟ .. من هو بياسو ؟

قلت لبوج جارجال فى صوت خافت : اسكت .. اسكت .. لا داعى لافزاع مارى .

قال متجهما : حسنا . ولكن كيف قبلت ان تعطيه هذا الوعد ؟ ولماذا وعدته ؟

— ظننتك ناكرا للجميل ، وحسبت مارى من الهالكين ، ففيم كانت تهمنى الحياة ؟

— ولكن وعدا شفويا لا يمكن ان يربطك بهذا الشقى .  
— اننى وعدته بشرفى .

وبدا انه يحاول ان يفهم ما اعنيه وقال : وعدته بشرفك ! وما قيمة هذا الوعد ؟ انكما لم تشربا من نفس الكأس . ولم تحطما معا خاتما او غصنا من شجرة اسفندان .  
— كلا .

— حسنا . ماذا تقول اذن ؟ .. وماذا يربطك ؟  
اجبت : شرفى .

— لا ادرى معنى هذا ... لا شئ يربطك ببياسو . تعال معنا .  
— لا استطيع يا اخى ، فاننى وعدت .

صاح فى حدة : كلا . انك لم تعد باى شئ .

ثم رفع صوته وقال : اختاه . انضمي الى وامنى زوجك من مفارقتنا . انه يريد ان يعود الى معسكر الزوج الذى خلعت منه بحجة انه وعد زعيمهم بياسو ان يموت .  
صحت به : ما هذا الذى فعلت ؟



ولكن الشر كان قد وقع ولم يعد فى وسعى اخفاء الحقيقة ،  
وارتمت ماري بين ذراعى وهى تطلق صيحة يأس ، وتعلقت بيديها  
بعنقى وقد خارت قواها وكادت تفقد انفاسها .

وتمتمت تقول فى مشقة : اوه .. ماذا يقول يا ليوبولد ..  
اصحح انه لا يخدعنى وانك فى تلك اللحظة التى اجتمعنا فيها تريد  
ان تتركنى ، وأن تتركنى لكى تموت ؟ اجبنى حالا والا مت . لا حق  
لك فى التفريط فى حياتى لانه لا يجب ان تفرط فى حياتى انا ،  
ولا اخالك تريد الا تفترق عنى والا ترانى بعد ذلك ابدا .  
قلت : لا تصدقيه يا ماري . صحيح اننى سافارقك لانه لابد من  
ذلك ولكننا سنلتقى فى مكان آخر .

قالت فى فزع : فى مكان آخر ... اين ؟

لم استطع ان اكذب على هذا الملاك فقلت : فى السماء .  
اغمى عليها ثانية ولكن من الالم هذه المرة ، وكان الوقت يمر ،  
وقد استقر منى العزم فالتقيتها بين ذراعى بوج جارجال الذى  
اغرورقت عيناه بالدموع وقال :

— اما من شئ يمكن ان يمنعك اذن ؟ لن ازيد شيئا على ما تراه .  
ولكن كيف يمكنك ان تقاوم ماريا ؟ اننى لاضحى بالعالم كله فى  
سبيلها ، من اجل كلمة واحدة ما قالته لك ، فكيف لا تريد ان تضحى  
لها بموتك ؟

اجبت : انه الشرف . الوداع يا بوج جارجال . الوداع يا اخى .  
اننى اوصى بها لك .

اخذ يدي . كان قد غرق فى لجة من الافكار ويبدو غير مصغ  
الى تقريبا وقال : يوجد فى معسكر البيض واحد من اقاربك  
يا اخى ، ساسلمه ماريا لاننى لا استطيع قبول وصيتك .

واشار الى صخرة فوق القمة التى تهيم على المكان وقال :

— اترى هذه الصخرة ؟ عندما تظهر فوقها الاشارة التى تدل

على موتك فان نبأ موتى لن يلبث ان يطير فى الارواء .. الوداع ..  
الوداع .



Looloo

www.dvd4arab.com

وعانقته دون ان اتوقف عند المعنى المجهول لهذه الكلمات  
الاخيرة . وطبعت قبلة على جبين ماري الشاحب ، وكانت قد بدأت  
تفيق نتيجة لعناية مربيتها بها . وفرت مسرعا خوفا من ان تفقدني  
نظرتها الاولى وزفرتها الاولى كل قوى .

## - ٤٨ -

فرت وتوغلت في الغابة العميقة متتبعا الاثر الذي تركناه دون  
ان اجروا على القاء نظرة خلفي ورحلت اجري دون هواده خلال التلال  
والسهول ، كما لو انني كنت اريد التقلب على الافكار التي راحت  
تلح على حتى بدا لي معسكر بياسو ، وعندئذ توقفت ، فقد بلغت  
المرحلة الاخيرة من طريقي ومن حياتي نفسها . وضعض التعب  
والانفعال قوى فاستندت الى شجرة حتى لا اقع ، وسرحت  
ببصري في الوادي الذي يمتد امامي .

حسبت حتى ذلك الوقت انني تجرعت كل كئوس المرارة والحقد ،  
ولكنني لم اكن قد عرفت بعد اشد المصائب قسوة وايلاما ، اي  
اضطرابي بقوة ادبية اقوى من قوة الاحداث الى التخلي طواعية عن  
السعادة وعن الحياة وهما ملك بنائي . لم اكن احفل بالحياة قبل  
ذلك ببضع ساعات ، فاني لم اكن اعيش لان اليأس المطبق هو ضرب  
من الموت ، ولكنني نجوت من هذا اليأس واعيدت ماري الى ،  
وبعث هنائي الميت من جديد ، اذا جاز لي هذا القول ، وماضي  
اصبح مستقبلي ، وبسطت لي الحياة ذراعها اخيرا ، حياة كلها  
شباب وحب وسعادة . كنت استطيع ان ابدا هذه الحياة الجديدة ،  
وكل شيء كان يدعوني اليها . لم تكن هناك اية عقبة مادية ولا اية  
عراقيل ظاهرة . كنت حرا وسعيدا ، ومع ذلك كان لابد لي من  
الموت ، والموت شيء تافه بالنسبة لرجل يائس تجهدت مشاعره  
لفرط الالم ، ولكن يده موجعة وباردة عندما تقع على قلب متفتح

تدفئه مباهج الحياة . احسست بكل هذه المشاعر ، فقد خرجت  
لمجرد لحظة من القبر ، وسكرت فى هذه اللحظة القصيرة بأجمل  
ما تحت السماء وهو الحب والوفاء والحرية . ولكن تعين على فجأة  
ان اهبط الى ذلك القبر من جديد .

## - ٤٩ -

عندما مرت حسرة الندم استولى على نوع من الغضب وتغلغل  
فى الوادى فى خطوات كبيرة فى حاجتى لتقصير المدة ، وتقدمت  
الى المراكز الاولى لمعسكر الزوج . وبدت عليهم الدهشة ولم  
يصدقوا انفسهم ورفضوا ان ياخذونى ، والعجيب اننى اضطرت  
التوسل اليهم . وأخيرا اخذنى اثنان منهم وساقانى الى حيث  
يباسو .

دخلت مقارة الرئيس . كان عاكفا على بعض ادوات التعذيب ،  
يحاول ادارة لوالها . وعندما سمع خطوات حارسيه وهما يدخلانى  
حول راسه . ولم تبد عليه الدهشة حين وقع بصره على ، وقال  
وهو يشير الى ادوات التعذيب :

- هل ترى ؟

لزمت الهدوء ، فقد كنت اعرف قسوة « بطل الانسانية » وعقدت  
العزم على احتمال كل شئ دون اظهار اى ألم .

وعاد يقول مزمجرا : اليس صحيحا ان ليجورى كان سعيدا لانه  
مات مشوقا ولم يعذب .

نظرت اليه فى برود وازدراء ولم انطق . وعندئذ قال لاحد  
مساعديه :

- قل لنيافة الكاهن ان ياتى .

وبقينا لحظة صامتين ، ينظر كل منا الى الآخر . كنت انظر  
اليه . اما هو فكان يراقبنى . ودخل ريجو فى هذه اللحظة وهو  
بادى الاضطراب وتحدث اليه . وقال يباسو فى هدوء :

– فليجتمع كل رؤساء الجيش .

وبعد ربع ساعة كان كل الرؤساء ، بثيابهم المختلفة ، وقوا امام المغارة . ونهض بياسو وقال :

– اسمعوا يا اصدقائي . ان البيض ينوون الهجوم علينا غدا عند بزوغ الفجر ، ومكاننا سيء ويجب علينا مفادرتة . فليبدأ بالسير جميعا عند مقيب الشمس ولنمض الى الحدود الاسبانية . ستكون انت فى المقدمة يا ماكابا عليك ان تنظم الصفوف الامامية برجالك . اما انت يا باردريجان فدمر قطع المدفعية التى استولينا عليها من برالاتو فانها لن تستطيع ان تفيدنا فى التلال ، وعلى رجال لاکروا ان يتبعوا جنود ماكابا .

وبعد ان اصدر بياسو اوامره بالسير استطرد يقول : واذا قام السحرة او الساحرات بأية ضجة فائى ساعدهم الى جلااد الجيش ، واذا بقى بعض الاسرى فاذبحوهم . اعدوا بنادقكم وسمموا سهامكم والقوا ثلاثة اطنان من الزرنخ فى المنبع الذى يستقى منه الجنود . سيظن المستعمرون انه سكر وسيشربون دون اى حذر . سدوا كل الطرق بالاحجار الكبيرة ، واحرقوا القابات .

» اما انت ياريجو فابق معنا . اما زنوج المورن روج فيسيرون فى المؤخرة ، ولا تدعهم يخلون المنطقة الا مع طلوع الشمس .  
وانحنى نحو ريجو واردف فى صوت خافت : انهم زنوج بوج جارجال ، واذا كان لابد من موتهم فليكن وليمت زعيمهم .  
وعاد يقول وهو يعتدل : يمكنكم ان تنصرفوا الان . وسياتيكم كاندى باوامرى .

وقال ريجو بعد ان انصرف الزعماء : ايها القائد . يجب ارسال رسالة جان فرانسوا . ان موقفنا فى غاية السوء وقد توقف هذه الرسالة البيض .

اسرع بياسو واخرج الرسالة من جيبه وهو يقول : لقد ذكرتنى

بها . ولكن بها اغلاط لغوية كثيرة تدعو الى الضحك .  
وعرض على الرسالة وهو يقول : اسمع . هل تريد انقـاذ  
حياتك ؟ ان كرمي يسالك مرة اخرى ان تتخلي عن عنادك . ساعدني  
في اعادة صياغة هذه الرسالة . ساملي عليك افكارى فتصوغها في  
لغة سليمة .

هزئت راسي نفيا فقال وقد عيل صبره : هل ترفض ؟

اجبت : نعم .

عاد يلح قائلا : فكر جيدا .

وبدا يحاول ان يلفت بصرى الى ادوات التعذيب التي كان يلهو  
بها . ولكننى قلت :

— اننى ارفض لاننى فكرت جيدا . يبدو لى انك تخشى على نفسك  
وعلى رجالك وتعتمد على رسالتك للجمعية لتأخير انتقام البيض ،  
وانا لا اريد حياتى اذا كانت سببا في انقـاذ حياتك ، فابدا  
بتعديبي .

قال بياسو وهو يركل آلة التعذيب بقدمه : آه . آه . يبدو لى  
انك قد اعتدت التعذيب . ويستونى هذا . ولكن لا وقت لى لكى  
اسومك العذاب فان هذا الموقع شديد الخطر ويجب ان نفاذره  
باسرع وقت . آه . انك ترفض ان تكون سكرتيرا لى . والحق انك  
على حق ، فما كنت لادعك على قيد الحياة بعد ذلك اذ لا يجب ان  
يعيش احد يعرف سرا من اسرار بياسو ، ثم اننى وعدت الكاهن  
بان اقدمك اليه لكى تموت على يديه يا عزيزى .

وتحول الى الكاهن ، وكان قد دخل فى هذه اللحظة ، وقال :  
ايها الاب الطيب ، هل رجالك مستعدون ؟

اوما الكاهن بالايجاب . وعاد بياسو يقول : هل جمعتهم من رجال  
المورن روج ، فهم الوحيدون فى الجيش الذين لا يرغمهم شئ على  
التحرك بعد .

اوما الكاهن بالايجاب للمرة الثانية . واثار بياسو عندئذ باصبغة

Looloo

www.dvd4arab.com

الى العلم الاسود الذى كنت قد لحظته قبل ذلك والموضوع فى ركن  
المفارة وقال :

— هل ترى هذا العلم ؟ انه هو الذى سينبىء قومك بنهاية اجلك .  
وساكون قد غادرت المعسكر عندئذ . وبهذه المناسبة ، انك تجولت  
فى السهول اليوم ، فكيف وجدتھا ؟  
اجبت فى برود : رايت اشجارا كثيرة تكفى لشنقك انت وجميع  
رجالک .

قال وهو يحاول الابتسام : حسنا . هناك مكان لم تره بعد .  
سيمضى الكاهن به اليك . الوداع ايھا النقيب الشاب وتحياتى الى  
ليجورى .

وحيانى وهو يضحك تلك الضحكة التى ذكرتنى بفحيح الشعبان  
المجرس ، ثم اتى باشارة واولانى ظهره ، وساقنى الزوج .  
ورافقنا الكاهن ومسبحته فى يده .

— ٥٠ —

مشيت بينهم دون ان ابدى اية مقاومة ، وصحيح انها ما كانت  
لتجدينى شيئا ، فقد كنا نصعد قمة جبل غرب المفارة حيث استرحنا  
لحظة . وهناك القيت نظرة اخيرة على الشمس الغاربة التى لا يجب  
ان تشرق على ، ونهض حراس وتبعتهم وهبطنا واديا صغيرا ما كان  
الا ليفتننى بجماله وروعته فى وقت آخر ، يخترقه نهر بعرضه  
ويكسب ارضه رطوبة خصبة . كان هذا النهر يصب فى نهاية  
الوادي ، فى احدى هذه البحيرات الزرقاء التى تنتشر فى التلال .  
وكم من مرة جلست على ضفاف هذه البحيرات واطلقت لاحلامى  
العنان ، فى تلك الساعة التى تكتسب السماء فيها تلك الحمرة  
الجميلة اثناء مغيب الشمس ، امتع العين بما يحيط بى من اشجار  
النخيل واشجار الدلب ذات الزهور الكبيرة واشجار المنفوليا



بكنوسها العريضة ، واشجار الابنوس والاعشاب المتسلقة التى تخفى  
عن العيون جوانب الصخور السمراء القريبة ، وترتفع من كل نقاط  
هذه الارض العذراء رائحة زكية بدائية كتلك التى لا بد قد استنشقتها  
اول رجل مع اولى زهور الجنة الارضية .

هذا ونحن نمشى بطول الطريق الممهّد على شواطئ النهر .  
ودهشت حين رايت ان هذا الطريق يؤدى فجأة الى اسفل صخرة  
منحدرة لحظت بعدها فتحة على هيئة القوس يجرى النهر خلالها .  
وانبعث من داخل هذا القوس صوت اصم ورياح شديدة هوجاء ،  
وانعطف الزوج الى اليسار خلال طريق وعر عسير بدا ان مياه نهر  
جف قد حفرتة منذ وقت طويل . واعترضتنا قبة تغطى الاعشاب  
والاشواك البرية نصفها ، وسمعت تحت هذه القبة صوتا اشبه  
بذلك الصوت الذى انبعث داخل القوس . وساقنى الزوج اليها ،  
وفى اللحظة التى خطوت فيها اول خطوة فى هذا النفق اقترب  
الساحر منى وقال فى صوت غريب :

— اليك ما اتينا به لك الآن . واحد منا نحن الاثنين سيخرج  
من هذه القبة ويعود الى هذا الطريق .

وانفت من الرد عليه . ومشينا فى الظلام . وازداد الصوت حدة  
وعنفًا ، ولم نعد نسمع صوت خطواتنا ، وادركت انه يصدر من  
شلال ، ولم اخطيء .

وبعد مسيرة عشر دقائق فى الظلام ، بلغنا ارضا متبسطة كونتها  
الطبيعة فى جوف الجبل . وكان اكبر جزء من تلك البقعة المسطحة  
اشبه بنصف دائرة يغطيها النهر الذى يتفجر من عروق الجبل  
بصوت مدو ، فى اعلاها قبة مكسوة بالبلابل الاصفر ، وكان ضوء  
النهار . يتسرب من هذه القبة ، واشعة الشمس الذهبية التى  
توشك على المغيب . وفى الناحية الشمالية من هذه البقعة يخفى  
النهر فى هاوية عميقة . كان الضوء الخفيف الذى يتسرب من سطح  
القبة يبدو كأنه يطفو فى جوفها دون ان يفرق ، وعلى حافة الهاوية

تنحنى شجرة عتيقة تختلط اغصانها بزبد التلال ، ويخترق جذعها المعقد الصخرة على مسافة قدم او قدمين فوق الشاطئ . كانت هذه الشجرة على هذه الصورة تفوض بهامتها وجذعها فى النهر فى نفس الوقت ، ويتدلى غصن منها فى الهاوية كما لو كان ذراعاً معروقا . وكانت الشجرة نفسها جرداء لا ترى فيها ورقة واحدة ، بحيث لم يكن من الممكن معرفة نوعها . وكان لها منظر غريب ، والرطوبة التى تفسر جذورها هى وحدها التى تمنعها من الموت ، فى حين ان عنف الشلال كان ينتزع منها بطريقة متعاقبة اغصانها الجديدة ويرغمها على الاحتفاظ بنفس الاغصان الى الابد .

- ٥١ -

وقف الزوج فى ذلك المكان ، ورايت عندئذ انه لابد لى من الموت .

وعندئذ ، وبجوار هذه الهاوية التى ساهوى اليها طواعية شيئا ما عادت الى مخيلتى صورة السعادة التى تخلبت عنها منذ ساعات قليلة ، وهاجمتنى فى حسرة وندم تقريبا ، وكان كل توسل للابقاء على حياتى غير جدير بى ، ومع ذلك فلم يسعنى الا ان اتنهد واقول :  
- ايها الاصدقاء ، هل تعرفون ان من المحزن ان يموت المرء وهو فى العشرين من عمره وهو يتقد قوة وحياة ويحب ويترك خلفه محبوبته تبكى حتى تنطفئ الجلود من عينيها ؟

ردت على قولى هذا ضحكة مخيفة . كانت ضحكة الساحر .  
واقترب منى ذلك القزم الخبيث الغامض وقال :

- ها ، ها ... هل تتحسر على الحياة الآن ؟ .. كان خوفى الوحيد هو الا تهاب الموت .

وخيل لى مرة اخرى اننى اعرف صاحب هذا الصوت وهذه الضحكة فصحت :

Looloo

www.dvd4arab.com

- من انت ايها الشقى ؟

اجابنى فى صوت رهيب : ستعرف ذلك .

ثم ازاح عن صدره الشمس الفضية التى تحجبه وقال : انظر .  
انحنيت فوقه . كان هناك اسم محفور على صدره بحروف  
بيضاء بفيضة لا يمكن محوها اذ كانت مطبوعة على صدره بحديد  
محمى ، كما يفعل الاسياد بعبيدهم . وكان الاسم هو لقب عمى  
ولقب اسرتى وهو : دوفرنى . وعقدت الدهشة لسانى .

وسالتى الساحر : حسنا : ليوبولد دوفرنى .. هل عرفتنى من  
اسمك .

دهشت وانا اسمع هذا الرجل يتنطق باسمى ، وقلت وانا احاول  
ان اجمع ذكرياتى :

- كلا . هذا الاسم لم يكتب ابدا الا على صدر المهرج . وقد مات  
القرم المسكين ، ثم انه كان وفيئا مخلصا لنا . لا يمكن ان تكون  
انت هابيبراه .

صاح فى صوت مخيف : بل انا هابيبراه .

ورفع القناع عن وجهه الدميم ، ولكن مرحة العادى الذى عرفته  
عنه تبدل الى تعبير كله وعيد وتهديد . وصحت وقد ازدادت  
دهشتى :

- رحماك يا ربى .. هل يبعث كل الموتى ؟ .. انه هابيبراه ،  
مضحك عمى .

وضع القزم يده على خنجره وقال فى صوت اصم : مضحكه  
وقاتله .

تراجعت مرتاعا وقلت : قاتله ! .. ايها المجرم ! .. اهذا جزاء  
كرمه وعطفه ؟

- كرمه وعطفه ؟ .. بل قل اهاناته .

قلت : ماذا تقول ؟ .. انت الذى قتلتها ايها الوغد ؟

اجاب وفى عينيه تعبير رهيب : نعم ، انا . اغمدت الخنجر فى

Looloo

www.dvd4arab.com

قلبه حتى مقبضه وهو نائم ولم يفق من نومه الا لى يلفظ روحه .  
وهو يصيح : النجدة يا هاببراه .  
وقد انجدته .

أهاجتني قصته البشعة ورباطة جأشه وصحت :

— أيها الوغد .. أيها القاتل الجبان .. أنسيت المزايا والهبات التي  
لم يكن يمنحها لغيرك . كنت تأكل بجواره وتنام بجوار فراشه .

قاطعتني فجأة قائلا : كالكلب . ولكن ما عليك . اننى لم أنسى هذه  
الميزات ولا تلك الهبات التي لم تكن فى حد ذاتها الا اهانات  
وازدراءات ، وقد انتقمته منه . وسأنتقم منك الآن . هل تظن اننى ،  
وأنا خلاسى وقزم مشوه لست رجلا . آه . ان لى روحا ، وروحا  
أشد عمقا وقوة من تلك الروح التي سأنتزعها من جسدك الشبيه  
بجسد فتاة . اننى أعطيت لعمك كما لو كنت قردا أقوم على تسليته  
وإمطرني باحتقاراته . تقول انه كان يحبني ؟ كان لى مكان فى  
قلبه ، بين قروده وببفائه ولكننى اخترت مكانا آخر ، بخنجرى .

ارتعدت فى حين استطرد القزم يقول :

— نعم . انا .. انا هو .. انظر الى وجهها لوجه يا ليوبولد . انك  
ضحكت على بما فيه الكفاية . ويمكنك ان ترتعد الآن . آه . انك  
تذكرنى بذلك التفضيل المخجل الذى كان عمك يؤثرنى به . واى  
تفضيل ؟ كنت اذا دخلت صالوناتكم قابلتنى آلاف الضحكات ، فان  
قامتى وجسمى المشوه وملامحى وثيابى المضحكة ، وكل العاهات  
المحزنة التي حبتنى بها الطبيعة . كان كل هذا يبعث على سخرية  
عمك المقيمة وعلى سخرية أصدقائه المقوتين . وأنا لم اكن أستطيع  
حتى ان أسكت ، فقد كان لابد لى ، ويا لفضبى ، ان امزج ضحكى  
بضحكاتهم التي كنت أستثيرها . اجبنى . هل تعتقد ان مثل هذه  
التحقيرات كان يمكن ان تكون سببا لى احتفظله بالجميل والعرفان .  
الا تظن انها تعادل بؤس العبيد الآخرين والعمل المضنى المستمر ولفع  
الشمس ولدع الحديد وسياط المشرفين . الا تظن انها لا تكفى لاضرام

نار الحقد الدفين فى قلب الرجل : آه . لكم تألمت لان فترة الانتقام كانت قصيرة ولأننى لم استطع اُرد للمستبد العجوز كل الاهانات التى الحقها بى والتى لا أستطيع نسيانها بعد مرور كل هذا الوقت . ويا لندمى لانه لم يعرف قبل ان يموت مرارة الكبرياء الجريئة ويشعر بالآثار المحرقة التى تخلفها دموع العار والغضب على وجهه رسمت عليه الطيبة ضحكة دائمة . ويا لندمى لانه لم يعرف اليد التى طعنته تلك الطعنة القاتلة ، فقد مات من غير ان يعرفنى وخدع غضبى انتقامى . ولكن انتقامى سيكون كاملا هذه المرة على الاقل ولعلك ترى ذلك . . . وصحيح انك تكاد لا تعرفنى فى هذا اليوم الجديد الذى يظهرنى لك ، فانت لم ترنى ابدا الاضحكا مرحا . ولكن الآن حيث لا يمنع روحى اى شئ لكى تظهر فى عيني فانتى لا أشبه نفسى . لم تكن تعرف الا قناعى ، واليك الآن وجهى .

كان وجهها مخيفا بشعا وصحت :

— ايها الوحش . انت واهم فما زالت بشاعة وجهك وقسوة قلبك تدل على ما فيك من تهريج وجنون .  
قاطعنى هابيسراه قائلا : لا تتكلم عن البشاعة .. وتذكر قسوة عمك .

صحت محنقا : ايها الوغد . اذا كان قاسيا فقد كان ذلك بسببك . انك ترى لمصير العبيد المساكين ولكن اذا كان ما تقول صحيحا فلماذا كنت تنتهز ضعف سيدك وتدفعه الى القسوة باخوانك ولا تنتهز صداقته وحبه لك لى تخفف من مصائبهم ؟

— ما كان ذلك الا ليثير استيائى . اأمنع انا رجلا أبيض من ان يذنب نفسه بالانغماس فى القسوة والقسوة ؟ .. كلا ، كلا . كنت ادفعه على العكس لكن يزداد طفيانا ويقسو على عبيده اكثر واكثر لأن ذلك كان يعجل بساعة الانتقام . اثنى بتظاهرى بالامعان فى اساءة اخوانى كنت اخدمهم .

تملكتنى الحيرة ازاء هذه التركيبة الغريبة من البغضاء واستطرد  
القر :

- حسنا . اترى اننى احسنت التدبير والتنفيذ ؟ .. ما رايك  
فى المهرج هابيراه ؟ .. ما رايك فى مجنون عمك ؟  
اجبت : اتمم ما بداته . اقتلنى واسرع .  
راح يمشى جيئة وذهابا فوق البقعة المنبسطة وهو يدعك يديه  
ويقول :

- واذا راق لى الا اسرع ؟ .. واذا طاب لى ان استمتع  
بعذابك ؟ ان بياسو كان مدينا لى بنصيبى فى الفنيمة التى سلبناها  
اخيرا ، وعندما رايتك فى معسكر السود لم اطلب منه غير حياتك ،  
وقد منحنى اياها طواعية ، والآن اصبحت لى انا ويروق لى ان الهو  
بها . سوف القى بك فى هذه الهاوية بعد قليل فاطمن . ولكن يجب  
ان اقول لك قبل ذلك اننى اكتشفت مخبا زوجتك ، وقد اوعزت  
الى بياسو اليوم ان يحرق القنابة . ولا ريب انه قد بدا بذلك  
الآن . وهكذا ابيدت اسرتك ، فقد مات عمك بالحديد وستموت انت  
فى الماء وستموت مارى فى النار .

صحت : اياها الوغد .. اياها الوغد .

وايتت بحركة لكى اهجم عليه ، ولكنه تحول الى الزوج وقال :  
- قيدوه اذن ... انه عجل بمنيته .

وبدا الزوج يقيدونى بالحبال التى اتوا بها معهم فى صمت .  
وفجأة خيل لى اننى اسمع نباح كلب من بعيد ، وحسبت اننى  
واهم ، وان الصوت انما هو صدى هدير الشلال .

وفرغ الزوج من عملهم ، وقربونى من الهاوية التى يجب ان  
تبتلغنى . وعقد القزم ذراعيه فوق صدره ونظر الى وهو يتسم  
ابتسامة انتصار . ورفعت عينى نحو الفتحة تهربا من منظره البشع  
ولكى انظر الى السماء . وفى هذه اللحظة سمعت النباح ، وكان اشد  
واقوى . وظهرت راس راسك الضخمة فى الفتحة فارتعدت فى حين  
صاح القزم فى صوت حاد :

- هيا ... القوا به .



وكان السود لم يفتنوا الى نباح الكلب وهموا بالقائى فى  
الهاوية .

- ٥٢ -

صاح صوت جهورى يقول : ايها الرفاق .  
تحول الجميع . كان بوج جارجال يقف على حافة الفتحة ترفرف  
على راسه ريشة حمراء . وعاد يقول :  
- ايها الرفاق !

واردف يقول اذ رآهم ينظرون اليه : انا بوج جارجال .  
ضرب السود جباههم بالارض وهم يصيحون صيحات لم استطع  
تميزها وصاح بوج جارجال :  
- فكوا قيود الاسير .

وهنا بدا ان القزم قد افاق من الذهول الذى اصابه من ظهور بوج  
جارجال المفاجيء فاوقف فجأة سواعد السود الذين يهمون بقطع  
قيودى وهو يصيح :

- كيف هذا ؟ . . من الذى يجرو على اصدار اوامره هنا ؟  
ثم تحول الى بوج جارجال وقال : ماذا اتيت تفعل هنا يا زعيم  
المورن روج ؟

اجاب بوج جارجال : جئت اصدر اوامرى لاخوانى .  
قال القزم فى غيظ مكتوم : صحيح انهم سود من قوم المورن  
روج .

ثم اردف يقول فى صوت مرتفع : ولكن باى حق تريد التصرف  
فى اسيرى ؟

اجابه الزعيم : انا بوج جارجال .  
ضرب السود الارض بجباههم فى حين عاد هاببراها يقول : لا يمكن  
لبوج جارجال ان ينقض ما وعد به بياسو . لقد منحنى بياسو الرجل  
الابيض واريد ان يموت وسيموت .

Looloo

www.dvd4arab.com

وأردف يقول مخاطبا السود : اما انتم فاطيعوني ... القوا به  
فى الهاوية .

واستجابة لصوت الساحر القوى نهض السود وتقدموا نحوى  
خطوة ، وظننت ان ساعتى قد حانت . ولكن بوج جارجال صاح  
بهم :

— فكوا قيود الاسير .

وفكوا قيودى على الفور . وتساوت دهشتى بدهشة الساحر .  
واراد ان يرتدى على ولكن السود اوقفوه . وعندئذ راح يطلق اللعنات  
والتهديدات فقال :

— كيف هذا ؟ اترفضون اطاعنى ابها الاشرار . انكرونى صوتى .  
لماذا اضعت وقتى فى الاستماع الى هذا الملعون ؟ كان يجب ان القى  
به الى الاسماك على الفور ، لاننى اردت ان يكون انتقامى كاملا هانذا  
افقده . آه ، ابها الشياطين الملعين . اسمعونى انتم الآخرون ...  
اذا لم تطيعونى وتلقوا بهذا الابيض الشرير فى النهر فانى سألعنكم  
... ستشيب شعوركهم ، وستفقدو سيقانكم وسواعدكم كالانغصان ،  
وستموتون شر ميتة . وبعد موتكم ستظل ارواحكم هائمة لا تعرف لها  
مستقرا ابدا .

كان لهذا المشهد فى نفسى اثر غريب .. الوحيد من سلاتى فى  
هذا النفق الرطب الاسود يحيط بى هؤلاء الزوج كالشياطين ، واقفا  
على حافة هاوية لاقرار لها . تارة يهددنى هذا القزم الدميم  
والساحر المشوه فى هذا اليوم الشاحب الذى لا يكاد نوره يبين ثوبه  
المخطط وطاقيته المدببة ، وتارة اخرى يدافع عنى ذلك الاسود  
العماق الذى ظهر فجأة من تلك الفتحة التى تتسرب منها اشعة  
الشمس الاخيرة ، وخيل لى اننى اقف على ابواب الجحيم واننى  
انتظر الموت او النجاة واشهد احدى هذه المعارك المستمرة بين ملاكى  
الحارس وشيطانى الشرير .

وبدا ان السود قد تولاهم الذعر والفرع من لعنات الساحر ،  
واراد هذا الاخير ان يستهزئ فرصة ترددهم فصاح :

— اريد ان يموت الابيض فاطيعونى والقوا به فى النهر .

ولكن بوج جارجال رد عليه فى قوة وحزم :  
 - بل سيعيش . انا بوج جارجال . كان ابى ملكا على بلاد  
 كاكونجو ، وكان يصدر احكامه العادلة على عتبة داره .  
 خر الزوج ساجدين من جديد . واستطرد بوج جارجال :  
 - اخوانى . اذهبوا وقولوا لبياسو الا ينشر العلم الاسود الذى  
 يجب ان ينبىء البيض بموت هذا الاسير لان هذا الاسير انقذ حياة  
 بوج جارجال وبوج جارجال يريد ان يعيش .  
 نهضوا واقفين والقى بوج جارجال بريشته الحمراء بينهم . وعقد  
 رئيس السود ذراعيه فوق صدره ثم التقط الريشة فى احترام ،  
 وخرجوا بعد ذلك دون ان ينطقوا بكلمة . واختفى الساحر فى ظلمات  
 النفق .  
 لن احاول ان اصف لكم ايها السادة الموقف الذى وجدت نفسى  
 فيه . وحدثت بعينى المبتلئين فى بيرو . وكان هو يتفرس فى  
 وفى عينيه تعبير غريب من الشكر والكبرياء . واخيرا قال :  
 - الحمد لله . لقد انتهى كل شىء يا اخى ، فقد من حيث اتيت .  
 سوف تجدنى فى الوادى .  
 واثار الى بيده وانصرف .

- ٥٣ -

تعجلت المضى الى ذلك الموعد لأعرف الظرف السعيد الذى ساق  
 منقضى الى فى الوقت المناسب وتاهبت للخروج من المغارة المخيفة ،  
 ولكن كانت لا تزال تنتظرني اخطار جديدة .  
 ففى اللحظة التى اتجهت فيها نحو النفق اعترضنى عائق غير متوقع  
 وسد على المدخل . وكان هو هابيراه بالذات فان القزم الحقود لم  
 يتبع الزوج كما ظننت وانما اختفى خلف صخرة ينتظر اللحظة  
 المناسبة لانتقامه . وجاءت هذه اللحظة وخرج القزم امامى فجأة  
 وضحك . كنت وحدى واعزل ، وكان فى يده خنجر يلمع . وعندما  
 وقع بصرى عليه تراجعت رغما عنى .

Looloo

www.dvd4arab.com

— آه . آه . اظننت انك تستطيع الافلات منى ؟ ولكن المجنون  
اقل منك جنونا . انك وقعت فى يدى ولن ادعك تنتظر هذه المرة .  
ولن ينتظر صديقك بوج جارجال عبثا ، فستذهب الى الموعد الذى  
ضربه لك فى الوادى ، ولكن امواج النهر هى التى ستتكفل بارسالك  
اليه .

وفىما هو يتكلم هكذا اندفع نحوى شاهرا خنجره ، فقلت وانا  
ارتد الى الخلف .

— ايها الوحش . لم تكن منذ لحظات اكثر من جلاذ اما الآن فانت  
قاتل .

اجابنى وهو يكشر عن اسنانه : اننى انتقم لنفسى .

كنت اقف فى هذه اللحظة وحدى على حافة الهاوية . وهجم على  
فجأة لكى يلقى بى فيها بطعنة من خنجره . ولكننى تجنبى الهجوم ،  
ففقد توازنه وانزلق فوق الطحلب اللزج الذى يكسو الصخور  
وتدحرج فوق المنحدر الذى تهدر الامواج تحته .

وصاح مزجرا : يا للشياطين !

ووقع فى الهاوية .

وسبق ان قلت لكم ان جذع الشجرة العتيقة يخترق الصخرة  
فوق الشاطئ بقليل . والتقى القزم به فى سقطته والتفت جونلته  
بمعقد الجذع فانتهر هذه الفرصة وتعلق به بقوة غريبة . وافلتت طاقيته  
المدببة من فوق راسه واضطر ان يتخلى عن خنجره . واختفت الطاقة  
باجراسها فى الهاوية مع الخنجر .

حاول هاببيراه وهو يتعلق بالهاوية ان يصعد الى الشاطئ ، ولكن  
ساعديه القصيرين لم يستطيعا بلوغ قمة المنحدر ، وراحت محاولاته  
لبلوغ سطح الصخرة اللزج والتى تشرف على الهاوية السحيقة  
عبثا . وصاح غيظا .

كانت اقل حركة من ناحيتى كافية لان تلقى به فى جوف الهاوية ،  
ولكن مثل هذا العمل كان جبنا ولم افكر فيه لحظة واحدة .  
ودهشه جمودى هذا . وحمدت الله على النجاة التى ارسلها الى  
بهذه الطريقة غير المرجوة وهممت بان ابتعد وان اتركه لمصيره المحتوم

عندما سمعت صوته يخرج فجأة من الهاوية في توسل وانين :

- ايها السيد .. ايها السيد .. لا تنصرف بالله ! .. لا تدع  
شخصاً مذنباً يموت وهو غير نادم وفي مقدورك ان تنقذه . وا اسفاه  
.. ان قواى توشك ان تخذلنى ، والفصن يوشك ان ينكسر وها هو  
ينحنى تحت ثقلى ، وثقل جسدى يجذبنى .

اقتربت من الهاوية متأثراً بصياحه ، والنور الباهت الذى كان  
يتسرب من الفتحة اضاء وجهه الدميم . وكانت سحنته قد تغيرت  
ورابت فيها رجاء وتوسلا لم يسبق ان رايتها من قبل .

وعاد يقول وقد رآى على وجهى امارات الشفقة والرثاء : مولاي  
ليوبولد . هل يعقل ان يرى انسان اخا له فى مثل هذا الموقف  
الفظيع وفى مقدوره ان ينقذه ولا يفعل ؟ .. بقليل من العون يمكنك  
انقاذى . وما هو كل شيء بالنسبة لى انما هو قليل بالنسبة لك .  
ارحمنى وانقذنى . ان عرفانى بجميلك سيعادل جرائمى .

قاطعته : لا تذكرنى بجرائمك ايها الشرير .

قال : انما اذكرها لاننى اكرهاها يا سيدى . كن اكثر رحمة منى .  
اواه . ايها السماء . ان الضعف يعتربنى فابسط يدك بحق الام  
التي انجبتك .

ويتعذر على ان اصف لكى كيف احدثت لهجته الحزينة التي  
تحفل بالخوف والذعر اكبر الاثر فى نفسى ، ونسيت كل شيء فلم  
بعد عدوا ولا خائناً ولا قاتلاً . انما كان رجلاً تعيشا يمكن لاقل جهد  
منى انقاذه من موت بشع . فقد كان يتوسل الى بصورة يرئى لها .

انحنيت وجثوت على حافة الشاطئ وقد اعتمدت باحدى يدي  
على جذع الشجرة الذى يتعلق به هايبيراه المسكين وبسطت له يدي  
الآخرى ... وما ان اصبحت فى متناوله حتى امسكها بكلتا يديه بقوة  
عجيبة ، وبدلاً من ان يعاوننى لكى يصعد كما كنت اتوقع اذا به يحاول  
ان يجذبنى الى الهاوية معه . ولو ان جذع الشجرة لم يكن لى عوناً  
قوياً لاتزعجتني جذبته ولهويت الى الهاوية . وصحت به اقول :

- ايها الوغد .. ايها الوغد !

اجابنى وهو يضحك ضحكة رنانة جهنمية . اننى انتقم لنفسى .

Looloo

www.dvd4arab.com

آه . انك وقعت فى يدى اخيرا . كنت انت قد نجوت وكنت انا ضائعا ، وانت الذى ستهوى الآن طواعية فى الهاوية . وهذا عزائى ما دام موتى قد أصبح انتقامى . انك وقعت فى الشرك وسأصطحب معى رفيقا بشريا لتكون طعاما للأسماك .

قلت وانا ابذل جهدا كبيرا لكى اتشبث بجذع الشجرة : ايها القادر .. اهكذا تكافئنى لاننى اردت ان انقذك من الموت ؟

اجاب : نعم . اننى اعرف اننى قد انجو معك ولكننى اؤثر كثيرا ان تموت معى . اننى افضل بكثير موتك على حياتى . تعال .

وفى نفس اللحظة توترت يداه الخشتان النحاسيتان على يدي فى قوة خارقة وومضت عيناه وعلا الزيد فمه ، وعادت اليه قواه التى تخلت عنه قبل ذلك بلحظة وقد تضاعفت بالفضب والانتقام . واعتمد بقدميه على جانب الصخرة العموديين وراح يتحرك كالفهد فوق الجذع الذى امتزج بشيابه التى حمته من السقوط ، محاولا ان يحطمه لكى يقع ويجزئ معى . وكان يتوقف بعض الوقت ثم يعاود محاولته من جديد وهو يضحك ضحكة شيطانية كانت تزيد وجهه دماة . ولو ان احدا رآه عندئذ لحسبه شيطانا يحاول ان يجر فريسته الى عالمه المظلم الخيف .

وكان من حسن حظى ان احدى ركبتى انحشرت فى احدى تجويفات الصخرة ، والتف ذراعى بالشجرة التى اعتمد عليها . ورحت أقاوم محاولات القزم بكل القوى التى يبعثها حب البقاء فى مثل هذه اللحظة . وكنت من وقت لآخر ارفع صدرى بمشقة كبيرة واصيح بملء قواى « بوج جارجال » ، ولكن هدير الشلال وبعد المسافة لم يترك فى نفسى اى أمل لكى يسمع صوتى .

ولم يكن القزم يتوقع منى كل هذه المقاومة فضاعف من قوته ومن محاولاته العنيفة . وبدأت افقد قواى على الرغم من ان هذه المقاومة لم تدم الا وقتا اقصر مما اخذته فى سردها عليكم ، واحسست بالشلل يتسرب الى ذراعى وبسحابة تغطي عيني وطنين يملأ اذنى وسمعت الجذع يقطع ويوشك ان ينكسر ، والساحر يضحك وهو يوشك على السقوط ، وبدأ لى ان الهاوية تصبح وهى تدنو منى .



ودفعنى الياس الى محاولة اخيرة ، فجمعت قواى الواهنة وصحت  
اقول مرة اخرى « بوج جارجال » . ورد على نباح راسك فحولت  
عينى . كان بوج جارجال وكلبه واقفين على حافة الفتحة ، ولا ادرى  
هل سمع صوتى او اذا كان القلق تملكه وعاد ورأى ما انا فيه من  
خطر .

وصاح بى : تما لك نفسك .  
وخشى هابيبراه ان انجو فصاح بدوره وهو يتميز غيظا : بل  
تعال .

وجمع قواه لكى يتغلب على ما بقى من قوتى ومقاومتى .  
وفى هذه اللحظة كل ذراعى وافلتت اصابعى الجذع الذى كانت  
تشبث به . وادركت ان امرى قد انتهى عندما احسست بمن يمسكنى  
من خلف . كان راسك ، فعلى اشارة من سيده وثب من الفتحة الى  
الشاطئ وامسكنى بفعه من ثيابى بكل قواه . وانقذتنى هذه  
النجدة غير المتوقعة . وكان هابيبراه قد استنفذ كل قواه فى محاولته  
الاخيرة . وجمعت قواى لكى انتزع يدى منه واضطرت اصابعه التى  
غلبها الخدر والتوتر الى ان تتخلى عنى اخيرا ، والجذع الذى تحمل  
كل هذه المحاولات انكسر تحت قدميه . وبينما كان راسك يجرنى  
الى الخلف بقوة هوى القزم الشرير فى الهاوية بين زبد الشلال المظلم  
وهو يرمى بى بلعنة لم اسمعها وعادت معه فى الهاوية .  
تلك كانت نهاية مهرج عمى .

- ٥٤ -

ضعضنى هذا المشهد الرهيب الذى مر بى ، وهذا النضال  
الضارى وهذه النهاية المروعة . وخرجت من كل ذلك وقد خارت قواى  
ولم اعد اعى ما حولى . وافقت من ذهولى على صوت بوج جارجال  
وهو يقول لى :

- اى اخى .. عجل بالخروج من هنا . ان الشمس ستغيب  
بعد نصف ساعة . سانتظرك هناك ، فاتبع راسك .



Looloo

www.dvd4arab.com

أعادت هذه الكلمات الرقيقة الأمل والقوة والجراحة إلى نفسي في وقت واحد فنهضت ، وانطلق الكلب مسرعا في النفق فتبعته يرشدني نباحه في الظلام . وبعد بضع دقائق رايت نور النهار أمامي . وبلغنا أخيرا مدخل النفق فتنفست الصعداء وتذكرت وأنا أخرج من تحت القبة الرطبة السوداء نبوءة القزم ونحن ندخلها : واحد منا سيعود من هذا الطريق .  
لقد أخطأ في توقعاته ولكن نبوءته تحققت .

- ٥٥ -

كان بوج جارجال ينتظرني في الوادي فارتميت بين ذراعيه ، وتملكني الكرب وأنا أريد أن أسأله ألف سؤال ولا أستطيع النطق بكلمة واحدة .

قال لي : اسمع ... ان زوجتك ، اختي في أمان . ذهبت بها إلى معسكر البيض وعهدت بها إلى قريب لك يقود المراكز الإمامية . وارتدت ان أسلم نفسي كأسير خـوفـا من أن يقتلوا بدلا مني - الأشخاص العشرة الذين يضمنون عودتي . ونصحتني قريبك أن أهرب وأن أحاول اتقاذك من العذاب حيث أنهم لن يعدموا الرجال العشرة إلا إذا مت أنت ، وهذا ما يجب أن يعلن عنه بياسو برفع العلم الأسود أعلى مكان من الجبل . وعندئذ أخذت أعدو ، وقادني رأسك وأتيت في الوقت المناسب وأحمد الله فسوف تعيش أنت وأعيش أنا .

وبسط لي يده وأردف يقول : هل أنت راض يا أخي ؟

ضممته إلى صدري مرة أخرى وتوسلت إليه ألا يفارقني وأن يبقى معي بين البيض ووعدته برتبة في الجيش الاستعماري ، ولكنه قاطعني وهو يقول في غلظة :

- أخي ... أتراني أقترح عليك أن تلتحق بجيشنا .

الجمني رده ولزمت الصمت . وأردف هو يقول في مرح :

- هلم بنا . امض سريعا لكي ترى زوجتك وتطمئنها .

ولس قوله هذا ألوتر الحساس في نفسي فنهضت والدنيا

لا تسعنى لفرط سعادتي وانطلقنا . وكان يعرف الطريق فتقدمنى  
فى حين تبعنا راسك .

وهنا أمسك دوفرنى عن الكلام ، والقى نظرة كئيبة حوله . كان  
جبينه يتفصد بالعرق . وغطى وجهه بيده ونظر راسك اليه فى قلق  
وقال :

— نعم . هكذا كنت تنظر الى .

وفى اللحظة التالية كان قد نهض وهو فى شدة الانفعال وخرج  
من الخيمة . ورافقه الرقيب والكلب .

— ٥٦ —

قال هنرى : اراهن اننا نندنو من الكارثة ، ويحزننى جدا ان يكون  
قد وقع لبوج جارجال شيء ، فقد كان رجلا ولا كل الرجال .

رفع باسكال عن شفتيه عنق زجاجة النبيذ وقال : وددت ، ولو  
مقابل عشر سلال من النبيذ ان ارى قشرة جوز الهند التى  
أفرغها فى جوفه مرة واحدة .

وكان الفريد يعزف لحنا حالما على الجيتار فأمسك لكى يقول :  
ان هذا الزنجى يثير اهتمامى كثيرا ، ولكننى لم أجرؤ على سؤال  
دوفرنى هل كان يعرف هو الآخر اغنية « انما انا المهرب » ؟

وعاد باسكال يقول : ان بياسو هذا رجل فريد . وان نبيذه  
لا يساوى شيئا ، ولكنه على الاقل رجل يعرف قدر الرجل  
الفرنسى . ولو اننى كنت اسيرة لاطلقت شاربى لكى يضع عليه بضعة  
قروش كما فعل ذلك النقيب البرتغالى فى مدينة جوا . اقول لكم  
ان دائى اشد قسوة من بياسو هذا .

قال هنرى وهو يلقى حافظة نقوده لباسكال : وبهذه المناسبة ،  
اليك الدينارات الاربعة التى ادين بها لك .

نظر النقيب فى دهشة الى مدينه الكريم الذى كان فى مقدوره  
ان يقول بحق انه دائنه . واسرع هنرى يقول :

— ما راىكم ايها السادة فى القصة التى رواها لنا النقيب حتى  
الآن ؟



Looloo

www.dvd4arab.com

قال الفريد : الحق اننى لم استمع اليها باهتمام كبير . ولكننى اعترف لكم اننى كنت امل ان اسمع من شفتى دوفرنى الحالم شيئاً اكثر اهمية ، ثم انها قصة غرامية نثرية ، وانا لا احب القصص الغرامية النثرية لاننى لا اعرف على اى لحن اشدو بها . صفوة القول ان قصة بوج جارجال ثير ضجرى فهى قصة طويلة .

قال باسكال : انت على صواب . هى حقا قصة طويلة ، ولو لم استعن بجليونى وزجاجتى لقضيت ليلة سيئة . ولاحظوا فوق ذلك ان فيها اشياء غير معقولة . فكيف نصدق مثلاً ان ذلك القزم الساحر .. ما اسمه .. هايتاه ؟ .. كيف نصدق انه لكى يفرق عدوه يرضى ان يفرق نفسه فى نفس الوقت .

قاطعته هنرى قائلاً : وفى للماء بالذات . اما انا ، فان الذى اثار طربى فى قصة دوفرنى فهو ان ارى كلبه الاعرج يرفع راسه كلما نطق باسم بوج جارجال .

وسمعوا وقع خطوات تقترب فأدركوا ان دوفرنى يعود . وسكتوا جميعاً . واخذ دوفرنى يمشى بضع لحظات وهو عاقد ذراعيه فوق صدره . وكان ثاديه العجوز قد جلس مكانه وراح يرقبه خلسة متظاهراً بأنه يلاطف راسك حتى لا يلحظ النقيب ارتبأكه .

واستأنف دوفرنى قصته اخيراً فقال :

- ٥٧ -

- مشى راسك خلفنا . ولم تكن اشعة الشمس تنير اعلى صخرة بالوادي ولكن الضوء صبغ الصخرة فجأة ثم اختفى . وارتجف الاسود وضغط على يدي بشدة وهو يقول :

- اسمع !

فقد دوى الوادي صوت اصم اشبه بدوى المدفع ، وردد الوادي صده . وقال الزنجى بصوت كثيب :

- هذه هى الاشارة !

واستطرد : هذا صوت مدفع ، اليس كذلك ؟

اومات بالايجاب . وفى وثبتين اثنتين كان قد اعتلى صخرة عالية .  
وتبعته . وعقد ذراعيه وابتسم فى حزن وقال :  
— هل ترى ؟

ونظرت الى الناحية التى اشار اليها . ورايت فوق الصخرة التى  
اشار اليها اثناء حديثنا مع ماري ، وهى الوحيدة التى كانت اشعة  
الشمس لا تزال تنعكس عليها ، علما اسود .  
وهنا سكوت دوفرنى سكتة قصيرة ثم قال :

— وقد عرفت فيما بعد ان بياسو ، فى تعجله الرحيل وفى اعتقاده  
باننى ميت لا محالة امر برفع العلم الاسود قبل عودة فرقة الاعداد  
التى تصاحبنى .

وكان بوج جارجال لا يزال واقفا مكانه عاقدا ذراعيه فوق صدره  
وينظر الى العلم المشثوم . وفجأة تحول الى فى حدة ومشى بضع  
خطوات كأنه يريد الهبوط من فوق الصخرة وقال :

— يا الهى ! .. يا الهى ! .. وزملائى المساكين .

ثم عاد الى وقال : هل سمعت صوت المدفع ؟

ولم اجب ، فعاد يقول :

— حسنا يا اخى ... هذه هى الاشارة ... انهم يسوقونهم  
الآن .

وهوت راسه فوق صدره ، وازداد دنوا منى ثم قال : عد الى  
زوجتك يا اخى ... سيقودك راسك .

ودندن بأغنية افريقية ، وراح الكلب يهز راسه ، وبدا انه يريد  
ان يمضى الى نقطة الوادى .

وتناول بوج جارجال يدي وحاول ان يبتسم : ولكن ابتسامته  
كانت نوعا من التشنج ، وصاح يقول فى صوت قوى : الوداع .  
واختفى بين الاشجار المحيطة بنا .

تسمرت مكاني كالمصعوق . وجعلنى القليل الذى حدث اتوجس  
كل شر .

واذ راى راسك سيده يختفى تقدم نحو حافة الصخرة وراح يهز  
راسه وهو ينبج نباحا حزينا شاكيا ثم عاد وهو يهز ذيله وقد

تندرت عيناه الواسعتان ونظرا الى فى قلق ثم عاد الى المكان الذى انطلق منه سيده ونبح بضغمرات . وفهمته ، فقد احسست بنفس مخاوفه . وتقدمت بضغمرات خطوات نحوه ، وعندئذ اسرع يعدو مقتفيا خطوات بوج جارجال . ولولا اننى كنت اجرى انا الآخر بكل قواى لما لحقت به فقد كان من الممكن ان افقد اثره لو لم يكن يتوقف ما بين آونة واخرى لكى يمكننى من اللحاق به . واجتزنا وديانا كثيرة وتلالا يغطيها غابات كثيفة واخيرا ..

وخبا صوت دوفرنى وارتمت على وجهه امارات يأس شديد ، وتمكن اخيرا من النطق بهذه الكلمات :  
- اكمل انت القصة يا ثاديه فاننى اشعر بان قوتى قد وهنت كما لو كنت امرأة عجوزا .

- بعد اذنك ... ما دمت تريد يا سيدى النقيب .. يجب القول ايها السادة الضابط انه على الرغم من ان بوج جارجال المعروف باسم بييرو كان زنجيا عملاقا شهما وكريما شجاعا فاننى لم اكن اميل اليه كثيرا ، وهذا شئ لم اغفره لنفسى ابدا بحيث اننى عندما علمت ان معسكر بياسو ينوى ان يقتلك عند مغيب شمس اليوم التالى استولى على غضب شديد نحو ذلك الرجل المسكين وشعرت بسرور لا يوصف وانا اقول له انه سيعدم هو او عشرة من رجاله ردا على موتك . ولم ينطق باى كلمة فيما عدا انه هرب بعد ساعة ، بعد ان احدث ثقباً كبيراً فى سجنه و ...

ابدى دوفرنى بحركة تدل على فروغ صبره فقال ثاديه :

- ليكن ... عندما راينا العلم الاسود يرفرف فوق الجبل ، واذا راينا انه لم يعد ، وهو الامر الذى لم يدهشنا اطلاقنا طلقة من المدفع كاشارة وامرت ان يساق الرجال العشرة الى مكان الاعداد ، ويبعد عن المعسكر بنحو ... ولكن هذا امر لا اهمية له ... وعندما بلغنا المكان المذكور فى مكانه . وفى هذه اللحظة رايت الزنجى العملاق اتيا من ناحية الغابة . وتهافت يداى . وجاء الى وهو يلهث وقال :  
- اننى اتيت فى الوقت المناسب . طاب يومك يا ثاديه .

نعم ايها السادة . لم ينطق بغير هذه الكلمات ومضى ففك قيود



مواطنيه . اما انا فوقفت مشدوها . ودارت عندئذ معركة كبيرة من المشاعر الكريمة بينه وبين السود كان يمكن أن تستمر طويلا ... لولا اننى انهيتها للأسف ، فاخذ مكان السود ... وفى هذه اللحظة وصل كلبه المسكين رأسك وهجم على وانشب أظافره فى عنقى . وكان من الممكن أن يزهق روحى لولا أن بييرو أتى بإشارة تركنى الكلب على أثرها . ومع ذلك فإن بوج جارجال لم يستطع منعه من أن يرقد عند قدميه . وعندئذ ، ومعتقدا أنك لقيت حتفك يا سيدى النقيب ... كنت محقا ... فصحت :

بسط الرقيب يده ونظر الى النقيب ولكنه لم يستطع النطق بالكلمة الأخيرة .

- وسقط بوج جارجال ... واصابت رصاصة كلبه فى قدمه وكسرتها . ومنذ ذلك الوقت أيها السادة الضباط ( وهز الرقيب رأسه فى اسى ) منذ ذلك الوقت وهو اعرج . وسمعت انينا فى القاعة المجاورة فمضيت ناحيته . كانت رصاصة قد أصابتك فى اللحظة التى هممت فيها بالجري لى تنقذ الزنجى العملاق . نعم يا سيدى النقيب . كنت ثن وتبكي ، ولكنك كنت تندبه هو فقد مات بوج جارجال .

وامسك الرقيب عن الحديث . وعاد دوفرني يقول فى صوت حزين : مات بوج جارجال !

واطرق ثاديه برأسه الى الارض وقال : نعم . انه انقذ حياتى اما انا فقتلته .



## الخاتمة

بما ان القارئ يطلب عادة تفسيراً نهائياً عن مصير كل الاشخاص الذين يهتم بهم فقد قمنا ببحث مستفيض عما حدث للنقيب ليوبولد دوفرني والرقيب ناديه والكلب راسك ، ولعلنا نذكر ان لحزن النقيب سبباً مزدوجاً وهو موت بوج جارجال المعروف باسم بيرو وموت حبيبته ماري التي نجت من حريق حصن جاليفيه ولقيت حتفها في الحريق الذي دمر مدينة الكاب . اما النقيب نفسه فهذا ما اهتمنا اليه فيما يتعلق به .

في غداة احدى المعارك الكبرى التي انتصرت فيها جيوش الجمهورية الفرنسية على جيوش أوروبا جلس اللواء المكلف بالقيادة العامة لكتابة التقرير الذي يجب ان يرسله ، استناداً الى مذكرات مساعديه ، الى الجمعية التأسيسية العامة ، عن النصر الذي احرزه جيشه بالامس .

وجاءه أحد رجاله يقول له ان ممثلاً عن الشعب يريد ان يتحدث اليه . وكان اللواء يمقت هذا النوع من السـفراء ذوي القبعات الحمراء الذين يوفدهم سياسة الثورة الفرنسية الى المعسكرات وذلك لاذلالهم وعزلهم من وظائفهم ، فهم في الحقيقة دسائسون مكلفون من الجلادين بالحط من الانتصارات ومن كبار الضباط ، ومع ذلك فقد كان من الخطر رفض زيارة اي واحد منهم خصوصاً بعد احرار النصر في احدى المعارك . ولهذا اصدر اللواء بادخال المندوب .

وبعد ان هنا المندوب اللواء للانتصار الذي احرزته الجيوش الجمهورية اقترب منه وقال في صوت خافت :

— ولكن ليس هذا كل شيء ايها المواطن الجنرال ، فلا تكفيها هزيمة الاعداء في الخارج وانما لابد من ابادتهم في الداخل .

اجابه الجنرال مشدوها : ماذا تقصد ؟

قال مندوب الجمعية التأسيسية القاض : ان في جيشك رجلاً

يدعى ليوبولد دوفرنى ، وهو يقود الفرقة الثانية والثلاثين ، فهل تعرفه ايها الجنرال .

اجابه الجنرال : نعم . كنت اقرا تقريراً من القائد المساعد عن هذه الفرقة بالذات . ان قائدها نقيب ممتاز .

قال المندوب فى ترفع : كيف هذا ايها المواطن الجنرال . ا تكون قد منحته رتبة اخرى ؟

- لا اخفى عليك ايها المواطن المندوب ان هذه كانت نيتى فى الواقع .

صاح المندوب يقول فى حدة : ان النصر قد اعمى بصيرتك ايها الجنرال ، فحذار مما تفعل ومما تقول . اذا انت احتضنت ثعابين الشعب الاعداء فكن على حذر والا حطمتك الشعب مع الثعابين . ان ليوبولد هذا ارستقراطى ، ومن اعداء الثورة ، من الملكيين اليعقوبيين ، وعدالة الشعب تنادى به ويجب ان تسلمه لى على الفور .  
اجابه الجنرال فى برود : لا أستطيع .

صاح المندوب وقد ازداد حدة : كيف هذا ؟ .. لا تستطيع ؟ الا تعلم ايها الجنرال انه لا حدود لسلطتى هنا . ان الجمهورية تأمرك وانت تقول انك لا تستطيع . اصغ الى . تسامحا منى نظير الانتصار الذى احرزته اريد ان اقرا عليك التقرير الذى جاءنى بخصوص هذا الدوفرنى والذي يجب ان ابعث به هو بالذات الى المدعى العام . وهو موجز من قائمة أسماء ارجو الا تضطرنى الى اضافة اسمك اليها .

« ليوبولد أوفرنى ( بعد حذف حرف الدال الذى يشير الى نبل الاسم ) النقيب بالفرقة الثانية والثلاثين ، متهم ، اولاً ، بأنه ذكر فى اجتماع لبعض المتأمرين قصة مزعومة مضادة للثورة من شأنها تسخيف مبادئ المساواة والحرية وتمجيد الخرافة القديمة المعروفة باسم الملكية والدين . ثانياً : بأنه وصف مختلف الاحداث الاخيرة والشهيرة وخاصة تحرير زنوج سانتو دومينجو ، بأوصاف يستنكرها كل من يساند الثورة . ثالثاً : بأنه يستخدم فى حديثه دائماً كلمة « السيد » ولا يستخدم كلمة مواطن ابداً ، ورابعاً وأخيراً بأنه تأمر علانية لقلب نظام الحكم الجمهورى لصالح اليعقوبيين والملكيين ، وهو يستحق الموت .

« حسنا ايها الجنرال ، ما رايك فى كل هذا ؟ اما زلت تدافع

عن هذا الخائن لا وهل تتردد نى تسليم عدو الشعب لكى يلقى جزاءه ؟

اجابه اللواء فى وقار : ان عدو الشعب كما تدعوه ضحى بنفسه فى سبيل الشعب ، وسأرد على تقريرك بتقرير آخر منى انا فاسمع بدورك .

« ليوبولد دوفرنى ، النقيب بالفرقة الثانية والثلاثين تسبب فى الانتصار الاخير الذى احرزته قواتنا ، فقد اقام المتحالفون متراسا محكما كان لابد من تحطيمه ، وموت الباسل الذى يثن عليه الهجوم قبل غيره كان امرا مؤكدا . وقد ضحى الكابتن دوفرنى بنفسه فهجم على المعقل ولقى حتفه ولكننا انتصرنا . وقد عثرنا على الرقيب ثاديه ميتا بجواره ومعه كلب . ونحن نقترح على الجمعية التأسيسية الوطنية ان تشيد بالنقيب دوفرنى لانه ابلى بلاء حسنا فى سبيل وطنه .

واستطرد الجنرال يقول فى هدوء :

— ارايت ايها المندوب الى اختلاف مهمتنا ، فان كل واحد منا يرسل تقريرا الى الجمعية التأسيسية الوطنية . ونفس الاسم يوجد فى التقريرين ، فانت تقول انه خائن وانا اقول انه بطل ، وانت تقيم له المصلحة اما انا فاطلب ان يقام له نصبا تذكاريا ... لكل منا رايه . ولكن مما يدعو الى السرور والابتهاج ان هذا البطل قد افلت من تعذيبك فى معركة ، والحمد لله فان الذى كنت تريد ان تقتله قد مات ، ولم يسمعك .

استولى القضب على المندوب وهو يرى مؤامراته تتبخر مع متآمره ، وتمتم يقول بين أسنانه :

— انه مات . يا للخسارة !

سمعه الجنرال فصاح ساخطا : ما زال فى جعبتك سهم اخر ايها المندوب . امض وابحث عن جسد النقيب دوفرنى بين حطام المعقل فمن يدري ... لعل الأعداء تركوا راسه للمصلحة .

« تمت »



Looloo

www.dvd4arab.com

## هذه الرواية

تقع احداث هذه الرواية في جزيرة سانتو دومينجو ، احدى جزر الهند الغربية ، واكبرها بعد جزيرة كوبا ، وتعرف الآن باسم هايتى ، وكانت تعرف في الوقت الذى اكتشفها فيه كريستوف كولومبس باسم هسبانيوله .

وفي الوقت الذى تبدا فيه هذه الرواية كان الجزء الاكبر منها وتقع في غرب الجزيرة يحتله الفرنسيون ، أما الجزء الشرقى فكان يقع تحت الاحتلال الاسبانى وكانت الثورة الفرنسية قد طبقت في ذلك الحين مبادئ الحرية والمساواة ووافق البيض على هذه المبادئ ولكنهم رفضوا منحها للسود .

وتحكى هذه القصة الصراع الدامى بين البيض والسود والحرب الضروس التى نشبت بينهم ، تتخللها قصة حب عظيم حب عبد اسود تتجلى فيه شهامة الاسود ورفقته ونبل اخلاقه .